شبــابنا آمـــالنا

الدار المصرية اللبنانية

الدار المصرية اللبنانية

16 ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : 3923525 ـ 3936743
فاكس : 3909618 ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : 2022 ـ القاهرة
رقم الإيداع : 17333/ 2002
الترقيم الدولى : 5 - 753 - 270 - 977

الطبعة الأولى : شوال 1423 هـ ــ يناير 2003 م .
جمع وطبع : **عربية للطباعة والنشر** تليفون : 3251043 - 3256098

شبابنا آمالنا

# الثقافة العربية والشباب

د . على ليلة
أستاذ علم الاجتماع بجامعة عين شمس

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

# لماذا هذه السلسلة؟

**شبابنا آمالنا ..**

صيحة تنطلق من احترامنا لهذه الفترة العمرية من حياة الإنسان ، ولعل هذا الاحترام ينال مع المراحل النهائيـة السـابقة كل الاعتبـار؛ لأن مـرحلة الشباب من المراحل العمرية التى تتميز بالقابلية للنمو فى النواحى الجسمية والاجتماعية والنفسية والعقلية والتعليميـة ، إلى جانب القدرة على الابتكار والمشـاركة الفعـالة فى إحداث التغيير والتطوير فى المجتمع الذى يعيشـون بين جـوانبه ، لأن الشبـاب هم عماد الأمة ، وأسـاسها الراسخ الذى يقـوم عليه بنيانها .. فإن صلحـوا صلح البناء كله ، وإن فسدوا أو اهتزت قيمهم ضعف البناء ، حتى لقـد قيل فى أحـد الأقـوال المأثورة : « أمـة بلا شبـاب أقوياء هى أمة بلا مستقبل.. محكوم عليها بالفناء ! ».

ولما كـانت قضـايا الشبـاب من أهم القضـايا التى تهتم بها المجتمعـات الساعية إلى التقدم ؛ فقـد اهتمت « الدار المصرية اللبنانية » بإصدار سلسلة عن الشبـاب ليقرأهـا الشباب العـربى بنفسـه ، فيستطلع فيهـا أمور يومـه وغده، ويقف على مشـاكل حياته وقفة جد تنير له الطريق ، تعـرفه بما يجب عليه فعله ، وذلك من خلال هذه السلسلة « شبابنا آمالنا » .

وقد حرص محررو هذه السلسلة على أن تخاطب الشباب مباشرةً وليس الآباء أو الأمهات أو المعلمين ، فضمنوها موضوعات تهم الشباب العربى

من المحيط إلى الخليج ، حيث إن الاهتمامات بين البيئة العربية واحدة تقريبا، وإن تباينت من بلد إلى آخر ! كما حرص محررو السلسلة على أن تناقش بعض القضايا التى تقترب معهم وبهم من الكمال النهائى ، إيمانا منهم بأن هذه المرحلة قد يظهر خلالها بعض الاضطرابات السلوكية ، وبعض جوانب التفاعلات الاجتماعية التى يظهر فيها القبول تارة ، والرفض تارة أخرى .. إلى جانب أنها فترة يظهر فيها ـ كذلك ـ جوانب الانتماء ، والمسئولية ، والعطاء ، إذا أعدت الإعداد السليم .. أو قد نرى فيها بعض الملامح السلوكية التى تجمح ببعض الشباب إلى طريق الاندفاع والثورة والرفض والتبرم والاعتراض ! لذا .. كانت المحاور الرئيسية التى تقوم عليها هذه السلسلة هى: الاهتمام بالجانب الثقافى المعرفى ، والجانب الأخلاقى الدينى ، والجانب النفسى الاجتماعى ، والجانب الرياضى الترويحى ، بالإضافة إلى الجانب الإعلامى الإرشادى ، وأخيرا الجانب التأهيلى المهنى .. وذلك من خلال دراسات وآراء كبار الأساتذة والمفكرين التى تقوّم قضايا ومشكلات الشباب من منظور أخلاقى ؛ حمايةً ووقايةً للشباب .

وإننا نقدم هذه السلسلة إيمانا منا بأن الشاب العربى الذى ينتسب إلى طائفة العاملين الجادين ؛ ينتسب بدوره إلى فئة الأبرار .. تلك التى تحرسها الملائكة لأنهم يعملون من أجل رفعة أوطانهم ، فتحفهم بدعوات صادقة ، وتحذرهم فى الوقت نفسه حين يتهددهم خطر الضلال الذى قد يضطرهم إلى القيام بكثير من الأعمال التى تنحرف بهم عن جادة الطريق .

.. والله الهادى إلى سواء السبيل ..،

## الفصل الأول

# مقدمة حول المفاهيم

يفرض الاهتمام بالثقافة العربية للشباب ضرورة تناول مجموعة من المفاهيم الأساسية كمفهوم الشباب والثقافة، وثقافة الشباب . وفيما يتعلق بالمفهوم الأول نجد أن الشباب فى تحديدهم الأساسى يشكلون شريحة عمريه متميزة بحالة من الفاعلية والدينامية فى حياة الإنسان . وقد جذبت هذه الفئة انتباه العلوم الإنسانية وعلم الاجتماع فى النصف الثانى من القرن العشرين ، حيث برزت فاعلية هذه الشريحة لثلاثة اعتبارات ، ويتمثل الاعتبار الأول فى الدور النضالى الذى قام به الشباب فى فترات التحرير والاستقلال والمد الاشتراكى ، حيث تبنى الشباب رؤية راديكالية تخطت الحدود الوطنية والقومية إلى حيث يوجد تجسيد للمبادئ والمثل. فقد تظاهر الشباب عبر العالم جميعه لدعم وتأييد حرب التحرير الفيتنامية، وساندوا ثوار الجزائر فى نضالهم من أجل الاستقلال ، وأيدوا جماعات التحرير الفدائية فى آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية ، وأثارت خيالاتهم رايات « هو شى منه » و« ناصر » و«لومومبا» و « تشى جيفارا » ، حيث لاقت مضامين مواقفهم هوى فى نفوسهم ، فطهارتها تعكس نقاءهم وطهارتهم . ومن ثم فقد فتنوا بها وحكوا الأساطير حول أحداثها .

ويتمثل الاعتبار الثانى فى مكانتهم ودورهم فى إطار عملية التنمية والتحديث التى تمر بها مجتمعاتهم « مجتمعات العالم الثالث » ، وإذا كانت

عمليـة التحديث قـد أدت إلى انهيار الثقـافـة التقليدية التى لا تضع تمييـزا لشريحة الشبـاب ، فإنه حينما شرعت المجتمعـات النامية فى تحديث أبنيتهـا فإنها واجهت ضرورة إعـداد تأهيل الكوادر البشرية ، الأمـر الذى ساعـد على بلورة شريحة الشباب كشريحة عمـريه وجماعة اجتماعية وثقافيـة متميزة يتم تأهيلهـا لتتحمل العبء الأسـاسى فى عمليـة تحديث المجتمع ، فهم أصحاب السواعـد القوية ، وهم القوى العقلية التى تستطيـع استيعاب ما يساعـد على التجديد والتحديث . وإذا كـانت عملية التحديث قـد أكدت على أهميـة تقسيم العمـل الحديث كأسـاس للتقـدم ، فإنها قـد أكـدت فى الوقت ذاته على تصنيـف البشر من حيث نوع ومستـوى فـاعليتهم ، وفى إطار هذا التصنيف كان للشباب مكانة خاصة .

ويشير الاعتبار الثالث إلى الدور الذى لعبتـه الظروف المتنوعة فى بلورة هذه الشريحة العمـريه . من هذه الظروف حالة الانكسـار التى طرأت على عالمنـا فى العقود الثلاثة الأخيرة للقـرن العشرين ، فقد اكتمل ظهـور دولة الرفـاهيـة ، وتحققت فى إطارها إنجـازات مـادية كبيرة ، لكنهـا حققت فى الوقت نفسـه تراجعا على المستـوى الروحى أو المعنوى ، الأمـر الذى ربط بين الرفاهية والترف من ناحية وحـالة من الأسى أو اليأس العام من ناحية أخـرى . حيث أصبحت آلة النظام قـوية وقهـرية ومخادعـة ، قتلت روح التحـرر والتمـرد والفـاعليـة عند الشبـاب ، الأمـر الذى أدى إلى نشأة الجماعات الخارجـة على النظام كالهيبيز وجماعـات الثقافـة المخدرة ، حيث رأى فيهم هربرت مـاركيوز الفـاعل الثورى الجديد الذى سـوف يحل محل البروليتاريا ، وسماهم جيرجون هابيرماس أطفال الثورة الصغار .

الأمر لم يختلف كثيرا فى مجتمعات العالم الثالث ، فقد دفعت انهيارات عملية التنمية فى هذه المجتمعات إلى خلق مصاعب عديدة بالنسبة للشباب، فلا وظائف ، ومن ثم فلا دخل ، ولا أمل فى الزواج وتشكيل أسرة . ظروف هذه المجتمعات فرضت توقف دورة الحياة بالنسبة للشباب. وفى مواجهة هذا التناقض بين مجتمع توقف نموه أو تآكلت تنميته فى مواجهة شريحة تعد الحركة والدينامية جوهر وجودها ، انقطع الشباب عن المشاركة ومارسوا حالة من الانسحاب ، فالأهداف ضاعت ولم تتحقق ولا أمل . حتى التمرد والرفض لم يعد متاحا فآلة النظام قوية وباطشة ، ووسائل القهر أصبحت متنوعة وعاتية ومخادعة . وطال الانسحاب فأصبح غيابا عن الساحة . ولم تحرك الأنظمة السياسية ساكنا يدعوهم إلى المشاركة فقد استراحوا وأراحوا .

وقبل عقد واحد من بداية الألفية الثالثة ظهر نظام عالمى جديد بقوة عالمية واحدة ، حاكمة ومتسلطة ، تسعى إلى فرض نمطها على مجتمعات العالم وثقافاته . فإلى جانب ترسانة السلاح العاتية التى امتلكتها ، امتلكت كذلك ترسانة من التكنولوجيا الناعمة المتمثلة فى الإعلام والإعلان وتكنولوجيا المعلومات كآليات لنشر نمط الحياة الغربية والأمريكية بالتحديد .

ولنشر هذا النمط فلا مانع أن يصاحب ذلك قدر من التبشير بالجنس وتوسيع مساحة الغرائز فى الذات الشابة بالاستعانة بذات الوسائل . والدولة القومية عاجزة أمام هذا الاختراق عن حماية شبابها . وأمام هذا الطوفان الجديد يؤسس الشباب مخارج للهروب ، إما إلى جماعات الدين

والجهاد ، فرارا من الدنس وبحثا عن الطهارة والنقاء ، وإما الغياب من خلال تعاطى المخدرات حيث عالم بلا مشكلات ولا آلة قمع قوية ولا جنس يؤرق الضمير ، فإن لم يكن فالاندفاع فى الجنس حيث الاستمتاع للحظات تطول أو تقصر ، تتكرر لتهبط بالإنسان إلى مستوى أدنى من الإنسان .

تحديد مفهوم الشباب يتطلب إلقاء الضوء على زوايا عديدة . هل نحددهم من الخارج مثلما يفعل علماء السكان استنادا إلى متغير العمر الذى يقضيه الفرد فى أتون التفاعل الاجتماعى ، حيث نجد من يؤكد أن الشباب هم من دون سن العشرين ، أو من يحدد هذه الشريحة بصورة أكثر دقة فيذهب إلى أنهم من يقعون بين الخامسة عشر والخامسة والعشرين ، وأحيانا يمتد الحد الأخير حتى الثلاثين [١] . وتستند هذه الاختلافات بطبيعة الحال إلى اختلافات فى طبيعة السياق الاجتماعى . على عكس علماء السكان يسعى علماء النفس إلى تحديد شريحة الشباب أو الشخصية الشابة من الداخل . حيث يحددونها استنادا إلى اكتمال البناء النفسى ، وهو البناء الذى يحقق مواءمة بين العنصر البيولوجى فى بناء الشخصية بما يحتويه من حاجات ودوافع وغرائز ، والتوجيهات القيمية التى يستوعبها الشاب من ثقافة السياق الاجتماعى خلال عملية التنشئة الاجتماعية ، بحيث يؤدى اكتمال البناء الدافعى إلى تمكين الشخصية الشابة من التفاعل السوى فى مختلف مجالات الواقع الاجتماعى [٢] .

على خلاف ذلك يحدد علماء الاجتماع شريحة الشباب استنادا إلى المجتمع كإطار مرجعى . حيث يؤكدون أن فترة الشباب تبدأ حينما يحاول بناء المجتمع تأهيل الشخص لكى يشغل مكانة اجتماعية ، ويؤدى دورا أو



● ومن ثم امتـلاك الدخل والمسكن المستقـل ، والزواج لتشكيل أسـرة . وهو الاكتمال الذى يتحقق بين الخامسة والعشـرين والثلاثين .

أدوارا اجتماعية وتنتهى هذه المرحلة حينما يستقر الشخص فى شغل مكانته ويؤدى الأدوار التى أهل لها . وهو ما يعنى أنه أصبح جزءا من النظام المستقر والثابت . ومن ثم فهم يذهبون إلى أن الشخصية تظل شابة طالما أن صياغتها النظامية لم تكتمل بعد (٣) . ويكشف تأمل هذه التحديدات الثلاثة عن وجود حدين بارزين لتعيين حدود الشخصية الشابة ، الأول حد بيلوجى فسيولوجى يحدد بداية مرحلة الشباب ، ويتميز بوقوع مجموعة من التغيرات البيولوجية والفسيولوجية فى بناء الكائن البشرى بين سن الرابعة عشرة والسادسة عشرة ، حيث تحدث تغيرات فى بنائه الفيزيقى تجعله يكتسب الملامح الخارجية للبالغين ، وهو ما نعتبره سن البداية لمرحلة الشباب ، على حين يعدّ الحد الثانى ذا طبيعة اجتماعية يتمثل فى اكتمال شغل الشاب لمجموعة الأدوار الاجتماعية التى يعينها المجتمع للبالغين كالحصول على فرصة عمل ، ومن ثم امتلاك الدخل والمسكن المستقل ، والزواج لتشكيل أسرة . وهو الاكتمال الذى يتحقق بين الخامسة والعشرين والثلاثين . وهو ما يعنى أن بداية الشباب ذات طبيعة فسيولوجية ، بذلك نجد أن نقطة النهاية ذات طبيعة اجتماعية . ومن الطبيعى أن تختلف سن البداية والنهاية بحسب طبيعة السياق الاجتماعى ، إذ تختلف السياقات الاجتماعية عن بعضها البعض من حيث قدرتها على تحقيق النضج الفسيولوجى والاكتمال الاجتماعى لأبنائها من الشباب .

بذلك نجد أن الشباب شريحة عمرية لها بنيتها البيولوجية والسيكولوجية الخاصة التى تتضمن دوافع وحاجات محددة ، ولذلك فهى لها موقعها فى بناء المجتمع ، وبالنظر إلى الشرائح العمرية الأخرى. إضافة إلى كونها شريحة رأسية تقطع البناء الاجتماعى بطبقاته الاجتماعية وتجمعاته

وسياقاته المتباينة . بيد أنهم كشريحة عمرية مثلما أن لهم انتماءاتهم إلى سياقاتهم الاجتماعية والطبقية ، فإن لهم انتماءهم إلى ذات الشريحة وبنيتها ، حيث نجدهم يبرزون ذات الخصائص تقريبا.

واستنادا إلى ذلك يتأكد وجود نوع من التجانس داخل الشريحة الشبابية بغض النظر عن انتماءاتها الاجتماعية المتنوعة ، ذلك يتحقق إذا تعرفنا على طبيعة مكونات الشخصية الشابة . إذ يكشف تأمل بناء الشخصية الشابة عن تضمنها لأربعة مكونات أساسية .

ويعد المكون البيولوجى هو المكون الأول فى بناء الشخصية الشابة . وهو عنصر قاعدى لا يختلف فيه الإنسان عن الحيوان (٤) . ويتضمن هذا المكون البيولوجى مجموعة الدوافع والحاجات والغرائز ، وهى جوانب لها وجودها القوى فى شخصية الشاب ، ومن ثم فإن عدم إشباع احتياجات البعد البيولوجى يولد توترا واضطرابا فى بناء الشخصية . ويشكل المكون الاجتماعى العنصر الثانى فى بناء الشخصية الشابة ، حيث يسعى الشاب إلى التفاعل مع الآخرين ، وإذا كانت الشخصية الشابة هى الحالة الأكثر اقترابا من البالغين ، إلا أنها شخصية لم يكتمل بناؤها بعد ، وهو الاكتمال الذى يتحقق بشغلها لمختلف أدوارها ، فإذا لم يتحقق ذلك فإن الاعتراف الاجتماعى بانتمائها لعالم البالغين قد يتأخر ، وهو بالنسبة لها وضع قلق ومؤثر . ويعد المكون السيكولوجى هو المكون الثالث فى بناء الشخصية الشابة ، ولأن الشخصية الشابة لم تستقر بعد ، فإننا نجد أن التفاعل فى إطارها يكون فى أقصى ذروته بين دوافع وغرائز المكون البيولوجى ، وضوابط المكون الثقافى والاجتماعى . ولأن الجوانب البيولوجية تكون فى

أقصى ذروتها حينئذٍ ، فإن الضوابط الثقافية والاجتماعية تكون هى الأخرى الأكثر فعالية فى هذه المرحلة لكبح انفجارات الدوافع والغرائز . ومن الطبيعى أن يؤدى هذا التفاعل إلى خلق توترات هائلة ، لأن هذا التفاعل يقع على ساحة الشخصية الشابة . ويشكل المكون الثقافى المكون الرابع حيث تستوعب الشخصية الشابة مضامين هذا البعد ( الدين والقيم والأخلاق ) من خلال عملية التنشئة الاجتماعية . ولأن الثقافة تلعب دورها فى توجيه السلوكيات التى تتبع لإشباع الحاجات والغرائز ، أو فى تحديد حقوق والتزامات الأدوار التى تشغلها الشخصية الشابة أو عليها أن تشغلها . فإن هذا الدور الضابط للثقافة يصبح مولدا لتوتر جديد يضاف إلى التوترات السابقة ، الأمر الذى يسلم فى النهاية إلى عدم استقرار بناء الشخصية الشابة .

ويعد مفهوم الثقافة هو المفهوم الثانى الذى نتعرض له . بداية نقصد بالثقافة مجموعة القيم والأفكار التى تشكل نسقا رمزيا يوجه التفاعل الاجتماعى فى مختلف مجالات الحياة الاجتماعية . وتنتقل الثقافة من جيل إلى آخر ، ويستوعبها الأفراد من خلال مؤسسات التنشئة الاجتماعية كالأسرة والمدرسة ومؤسسة العمل ، فإذا استوعبت الشخصية قيم الثقافة فإنها تشكل بعدا أو عنصرا أساسيا فى بنائها ، وبذلك فهى تلعب دورها باعتبارها ضميرا فرديا يتولى كبح القاعدة الغريزية فى الإنسان ، حتى لا تتسع مساحتها فتهبط به إلى ما دون المستوى الإنسانى . إلى جانب ذلك تعمل الثقافة على ضبط سلوكيات الإنسان بما يحفظ عليها فى نطاق السواء، وبما يجعل الإنسان قادرا على التفاعل الاجتماعى السوى فى المجتمع .

وتلعب الثقافة دورا تواصليا وتكامليا حينما تشكل مجموعة التوجهات المتبادلة بين البشر فى المجتمع ، وبهذا الدور تنتقل بالقيم من حالتها كموجهات للسلوك الفردى إلى دورها كضابط لتفاعل مجموعة من البشر فى إطار المجتمع.

ويكشف تشريح بناء الثقافة فى المجتمع عن تضمنه لثلاثة أنماط من القيم التى تيسر للإنسان التفاعل السوى فى مختلف مجالات الحياة الاجتماعية . وتعد القيم الوجدانية هى العنصر الأول فى منظومة القيم . وهى القيم التى ترتبط بموضوعات ذات أهمية عاطفية ، كتلك القيم المرتبطة بالوطن والأم ، حيث البعد العاطفى حاضر دائما فى هذه المنظومة الفرعية ، التى يستوعبها الإنسان منذ طفولته من خلال عملية التنشئة الاجتماعية ، وهى قيم غير قابلة للتغير ، ويعنى تكثف وجودها من حيث الاتساع والعمق مزيدا من استقرار المجتمع وتماسكه وقوة الانتماء له، على حين تعد القيم التفضيلية هى المنظومة الفرعية الثانية فى نسق الثقافة والقيم، وهى تلعب دورها بصفتها معايير للاختيار بين الموضوعات التى علينا أن نختار من بينها فى مختلف مواقف الحياة الاجتماعية ، وهى وإن تضمنت بعض الجوانب العاطفية إلا أن بها جوانب أخرى رشيدة . فالمفاضلة بين الموضوعات تتم بالنظر إلى مدى قبول الذات لها وهذا هو البعد العاطفى ، بيد أن المفاضلة تتم أيضا بناء على قدر من المعرفة الموضوعية لتحديد أكثر الموضوعات ملاءمة لإشباع الذات . وتلعب هذه القيم دورا محوريا للمفاضلة والاختيار بين الموضوعات فى مختلف مجالات الحياة كالاختيار الزواجى ( داخل مجال النظام العائلى) ، والإشباع الفورى أو المؤجل ( داخل النظام الاقتصادى) ، والانسحاب أو المشاركة الفعالة

(داخل النظام السياسى). وتعد القيم الإدراكية هى المنظومة الفرعية الثالثة، والتى تشكل عنصرا فى بناء الثقافة والقيم ، وهى تشكل أساسا من المعرفة الموضوعية الرشيدة التى يحصل الإنسان عليها من خلال التعليم - أيا كانت صوره - وهى بطبيعتها أكثر منظومات القيم قابلية للتغير . ومن السهل على الإنسان التخلى عن بعض مفردات هذا النمط من القيم لاكتساب أخرى محلها أكثر كفاءة تحل محلها ، وهو ما يعنى أن المعرفة الإنسانية تتجدد على الدوام ، لأن العلم والتفكير فى حركة دائمة ومتجددة(٥) .

وارتباطا بذلك تتشكل الثقافة فى الغالب من خلال أربعة مصادر تتفاعل مع بعضها بعضا لتخلق بنية الثقافة فى المجتمع . ويتمثل **المصدر الأول** فى التراث الثقافى المتطور تاريخيا والذى ينتقل من جيل إلى آخر، فى نوع من التراكم التاريخى المنقح والمتنامى ، والذى يعبر عن خبرة المجتمع وثراء ماضيه الحضارى . حيث يتضمن هذا المصدر استمرارا انتقائيا لمنظومة القيم ، تسقط فى إطاره القيم المرتبطة بحقب سابقة ، على حين تستمر القيم التى تلائم التفاعل فى حقب عديدة (٦) . ويشكل التفاعل الاجتماعى الحادث فى المجتمع **المصدر الثانى** لقيم الثقافة ، حيث تتخلق بعض القيم نتيجة لتفاعل البشر مع بعضهم البعض ، وبمجرد تخلقها فإنها تكتسب استقلالا يؤهلها لضبط التفاعل الاجتماعى فى المجتمع ، خاصة إذا تدعمت هذه القيم بقيم التراث . وسواء كانت هذه القيم ناتجة عن التفاعل الاجتماعى أو أعيد إنتاجها من خلاله ، فإنها بمجرد تبلورها تشكل قوة ضبطية لما يحدث فى المجتمع(٧) . ويعد العالم المحيط **المصدر**

**الثالث** لثقافة المجتمع . وإذا كانت المدرسة الانتشارية قديما قد أشارت إلى إمكانية هجرة السمات الثقافية بين مجتمعات منعزلة نسبيا فى نظام عالمى سابق وقديم . فإن ثقافة القوى العالمية المسيطرة بدأت ـ فى عالم تحكمه أيديولوجيا العولمة ـ تنساب لتخترق الدفاعات الثقافية للمجتمعات النامية . ونتيجة لذلك تفرض ثقافة الغالب وطرائقه فى العيش عبر آلية التقليد والمحاكاة فى البداية على ما يذهب عبد الرحمن بن خلدون . وهى الثقافة التى يتم استيعابها فى النهاية لتصبح عناصر فى منظومة القيم القومية التى تنظم التفاعل الاجتماعى . فقد أصبح من الصعب الحفاظ على الهوية الثقافية فى مواجهة ثورة الاتصالات والضخ الإعلامى المتواصل (٨) . وهو الأمر الذى جعل القيم الغربية حاضرة فى ثقافتنا وتؤدى دورها فى توجيه سلوكيات البشر ، وبخاصة شريحة الشباب .

وتشكل حاجات الشريحة الشبابية **المصدر الرابع** لظهور عناصر قيمية جديدة لها فاعليتها فى نطاق الشباب . فالشباب هم فئة من البشر لهم تكوينهم البيولوجى والسيكولوجى المختلف عن تكوين الشرائح العمرية الأخرى ، ولهم أوضاعهم الاجتماعية ومواقفهم المختلفة عن نظائرها عند الشرائح العمرية الأخرى . الأمر الذى يدفع إلى ظهور مجموعة من القيم أو المعايير التى تتوافق مع احتياجات هذه الشريحة ، إضافة إلى قدرتها على توجيه سلوكيات الشباب فى مختلف مجالات الواقع الاجتماعى .

ذلك يعنى أن الثقافة الشبابية هى امتزاج عناصر قيميه جاءت من التاريخ أو نتجت عن التفاعل الاجتماعى المعاصر ، بحيث تزاوجت هذه المنظومات القيميه المحلية مع قيم عالمية انتقلت إلى مجتمعنا عبر تكنولوجيا

الاتصال والإعلام ، إضافة إلى عنصر يتصل بخصوصية الشريحة العمرية ، بيد أن لنا ملاحظتين حـول هذه المنظومة القيمية . وتتمثل الملاحظة الأولى فى عدم التـآزر أو التكامل التام بين عنـاصر المنظومة القيمية ، الأمـر الذى يجعلهـا غير متماسكـة عضـويا ، بل إننـا نتـوقع أن تفـرض هذه العناصر تأكيدات متناقضة فيما يتعلق بموضوعات محددة . والثانية تتحدد بأنه نظرا لأن العنصر العـالمى فى المنظومـة ، هو العنصر الذى أصبحت له الغلبـة فى نطاق الشبـاب ، فإن ذلك قد تحقق نظـرا لأن الشباب هم الأكثـر تعرضـا وارتباطا بالإعلام وتكنولوجيا المعلومات ، إضـافة إلى كونها ثقافة متجددة ومتسارعة التغير ، وهى فى ذلك تعكس الخصائص الشبابية .

ذلك يعنى أن الثقــافـة تشكل عقل المجتمع ، أو حسبما يـؤكـد « إميل دوركيم » جـوهـر الضمير أو العقل الجمعى . فإذا كـان هذا العقـل قـويا ومتماسكا كـان قادرا على ضبط إيقـاع التفـاعل الاجتماعى بما يساعـد على تحقيق أهداف المجتمع . بيـد أنه إذا تعــرضت ثقـافـة المجتمع للانهيـار أو الاختراق ، فإن ذلك سـوف يعنى أن المجتمع يصبح عشـوائيـا فى حركتـه مفتقدا لبوصلة التوجيه ، إضافـة إلى أنه يطلق عقال الغرائز ـ وهى القاعدة الحيوانيـة فى الإنسان ـ من غير ضابط يتـولى السيطرة عليها ، بحيث تصبح سلوكيات الإنســان موجهة بمنطق غريزى ، عـارية من أية قيم أو معايير ، مثلما هى خالية من أى رشد أو منطق .

حيث تأسس التحـول الأول فى العـالم العربى وهو التحـول القـومى ، حيث ظهرت دعوات فى العالم العربى سواء على مستوى الصفوة السياسية أو الثقافيـة للوحدة العربيـة ، بحيث أصبح الخطاب الاجتماعى والسياسى

حينئذٍ خطابا وحدويا قوميا . فى هذه المرحلة نجد أن الخطاب العربى تقابل مع الخطاب الإسلامى ، ولكل مؤيدوه ، بحيث ساد حوار خلال هذه الفترة حول الخطاب الأولى بالاهتمام والرعاية ، هل هو الخطاب العربى أم الإسلامى ؟ وقد كان من الطبيعى أن ينعكس تعدد الخطاب إلى تباين التأكيد على المنظومات القيمية الكامنة وراء كل خطاب ، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى تفكيك بنية الثقافة والقيم خلال هذه المرحلة .

■■■

## الفصل الثانى

# متغيرات بناء ثقافة الشباب

الحالة الطبيعية أن تكون ثقافة الشباب فرعية من ثقافة المجتمع فى حالة امتلاك الأخيرة لبناء متماسك . غير أن تأمل حالة ثقافة المجتمع العربى فى العقود الأخيرة يكشف عن تعرض ثقافة المجتمع لمجموعة من المتغيرات التى أدت إلى انهيارها ، بحيث أصبح التفاعل الاجتماعى فى مجالات عديدة غير موجه بتوجهات ثقافية فعالة وقوية . ومن شأن هذه الحالة أن تكون غير مواتية لتأسيس ثقافة شبابية تتولى ربط الشريحة الشبابية بحركة المجتمع ، الأمر الذى دفع إلى تشكل عشوائى لثقافة شابة تؤثر على انتماء الشباب بالمجتمع وارتباطهم به . وتوجد مجموعة من المتغيرات المسئولة عن انهيار ثقافة المجتمع وتشكل ثقافة الشباب بطبيعتها ، وهو ما نغرض له :

١ - تعدّ التحولات الاجتماعية والاقتصادية التى خضع لها بناء المجتمع العربى أحد متغيرات انهيار ثقافة المجتمع وتشكل ثقافة المجتمع بالنحو التى هى عليه الآن . ويكشف تتبع التاريخ القريب للمجتمع العربى خضوعه لعدة تحولات كان لها تأثيرها على بنائه الاجتماعى والثقافى. ويتمثل التحول الأول فى التغيرات الشاملة التى حدثت فى الفترة التى امتدت خلال عقد الخمسينيات .

ويتمثل التحول الرابع فى التحولات التى طرأت على المجتمع العربى

بفعل تدفق تأثيرات أيديولوجيا العولمة ، التى فرضت أن يكون التحول الاجتماعى الاقتصادى ليبراليا واضحا فى طبيعته بحيث يصبح المشروع الخاص ، هو القاعدة الأصل فى التنمية الاجتماعية الاقتصادية على مستوى المجتمع العربى ، ومن الطبيعى أن يعجل هذا التحول بمزيد من التغلغل للثقافة الغربية من ناحية ، وباحتمالية الصدام بين المنظومة القيمية التى يستند إليها الخطاب العربى والإسلامى من ناحية ، وبين المنظومة الغربية المتسللة من ناحية أخرى .

يضاف إلى ذلك أن المجموعة الخليجية توازيا مع هذه التحولات التى حدثت فى المجتمعات العربية الأخرى ، خضعت هى الأخرى لمجموعة من العوامل التى أثرت على ثقافتها وقيمها . وتعد العمالة الوافدة إلى هذه المجتمعات وبخاصة العمالة الآسيوية التى انتقلت إليها بكثافة عالية من العوامل التى أثرت على نسيجها الأخلاقى والاجتماعى، فوجود خادم أو خادمة أو أكثر من ذلك من شأنه أن يفرز سلوكيات غريبة على الأسرة العربية هناك. ويزداد الأمر خطورة حينما يتولى هذه الأجانب تربية الطفولة العربية فى هذه المجتمعات نيابة عن الأم ، الأمر الذى سوف يولد أجيالا ، منظومتها القيمية أو الثقافية تسودها حالة من الاختلاط والفوضى والاهتزاز وعدم التماسك .

ينعكس ذلك أيضا على اللغة العربية فى مجتمعات الخليج ، حيث تسللت إلى أبنية العبارات والجمل ، ألفاظ غير عريقة ، مثل: (وايد) بمعنى « كبير » أو « سيدا » بمعنى فى « اتجاه الإمام » .. وهكذا بحيث نتوقع فى المستقبل لغة عربية دخلت فيها ألفاظ غريبة عليها من كل حدب وصوب، ولولا حماية القرآن الكريم للغة العربية لاندثرت مثلما اندثرت كل اللغات القديمة الأخرى .

وفى عـام ١٩٦١ بدأ التحـول الثـانى الذى اتخذ طابعـا اشتراكيـا حينما رفضت البرجـوازية العـريقـة التعـاون مع الأنظمـة السيـاسيـة فى تنميـة المجتمع، متسقـة فى ذلك مـع مـوقف البرجـوازية العـالميـة التى ضغطت لإسقاط المنجزات التنموية للأنظمة السياسية التى رفعت الشعار القومى، وقـد تبـاطأ التحـول الاشتراكى فى الثلث الأخير من الستينيـات ، وانتهى كليـة مع بداية السبعينيـات . فى ظـل هذا التحـول حـدثت تغيرات كثيرة أبرزها صـدور قوانين وقـرارات لإجـراء تعديلات جـذرية فى الريف وفى المدينة العربيـة ، بالإضافة إلى اتجاه كثير من المجتمعات العـربية لطرق مجال الصناعة ، وبخـاصة بناء الصناعات الثقيلة وصناعـات إحلال الواردات ، إلى كثير من الإجـراءات التى استفـادت منهـا الطبقـة المتـوسطة فى العـالم العـربى ، حيث كـانت هذه التحـولا لصـالح الطبقـة المتـوسطة الظهير الاجتماعى للصفـوة الثـورية ، إضـافـة إلى بناء بعض مشروعـات البنيـة الأساسية العملاقة لمشروع السد العالى .

ومع بداية السبعينيـات وحتى نهايتهـا وقع تحول جـديد على عكس التحول السابق ، حيث دفع التنمية وفقا للنموذج الليبرالى . ولقد صدرت مجمـوعـة من القـوانين التى أسست هذا التحـول على مستـوى مختلف المجتمعـات العربيـة التى أكدت على استثمار رأس المال العـربى والأجنبى والمناطق الحرة ، بحيث ردت هذه المرحلة الاعتبار للبرجـوازية العليا التى تولت قيادة عمليـة التنمية مستندة إلى الأيديولوجيا الليبراليـة ، التى تؤكد على المشروع الخاص .

وإذا تأملنا هذه التحـولات الأربعـة ، فسوف نجـد أن التحـول الأول كان لصالح الطبقة المتوسطة والدنيـا بامتياز . وكذلك التحول الثانى . وإن

بدأ التحول الثالث لصالح البرجوازية العليا ساحبا البساط على استحياء من تحت أقدام الطبقة المتوسطة ، فقد انتهى فى التحول الأخير إلى أن أصبحت البرجوازية العليا هى الطبقة الأولى بالرعاية .

وقد لعبت هذه التحولات دورا بارزا فى اهتزاز بناء الثقافة والقيم للمجتمع ، ويرجع ذلك إلى عدة عوامل : **الأول تعدد ومحدودية الخطاب** الأيديولوجى عبر هذه التحولات . فمن الخطاب الليبرالى إلى الخطاب القومى فى التحول الأول إلى الخطاب الاشتراكى فى التحول الثانى ، الذى تغير ليصبح خطابا ليبراليا فى التحول الثالث ، ليستمر ليبراليا صريحا فى التحول الرابع . وإذا كانت الأيديولوجيا هى مجموعة المبادئ التى توجه أداء المجتمع والمؤسسات والبشر ، فإن تعدد الخطابات الأيديولوجية وعدم تراكمها من شأنه أن يؤدى إلى بقاء مبادئها وقيمها عند مستوى سطحى دون أن تتعمق فى داخل البشر . هذا إلى جانب محدودية فاعلية هذه الخطابات ، فقد كانت مقصورة على الصفوة التى لم تكن فى الحقيقة على قناعة جادة بها . وظلت الجماهير بعيدة عن هذه الطروحات الأيديولوجية ، يضاف إلى ذلك عجز الأنظمة السياسية عن تربية الجماهير وفق قيم ومبادئ الأيديولوجيات التى طرحتها النظم السياسية ، ومن ثم فقد ظلت منحسرة غير قادرة على تعبئة البشر ودفعهم لتحقيق إنجازات معينة .

ويتمثل العامل الثانى فى تعدد الخطاب الثقافى ، حيث تشكل الخطاب الثقافى للمجتمع من عناصر عديدة ، بعضها جاء من التراث القديم الآتى من القبيلة العربية، الذى يميل إلى تأليه الشيخ أو الرئيس . الثقافات المتنوعة فى العالم العربى ، وهى الثقافات السابقة على الإسلام وانتشار

العروبة على خريطتها الآن . العنصر **الثالث** فى بناء الثقافة العربية المعاصرة، حيث استمرت هذه الثقافة قوية حتى الفتح الإسلامى لمختلف البلاد العربية ، ثم تحولت إلى ثقافة شريحة من السكان ، وظلت رافدا لكثير من الممارسات . بينما ينتمى العنصر **الرابع** فى الثقافة إلى القبيلة العربية القديمة التى هاجرت مع الفتح الإسلامى لمصر ، حيث القيم التى تؤكد على نظرة خاصة للمرأة ، وحيث التأكيد على النزعة الأبوية ، وهو التأكيد الذى تدعم بموروث دينى . ويعد الدين الإسلامى عنصرا **خامسا** فى البنية الثقافية فهو يشكل قاعدة الثقافة والقيم فى المجتمع ، بل وأساس الشرعية فى أحيان كثيرة ، ألم يستخدم عبد الناصر الدين فى تبرير الاشتراكية ؟! وألم يستخدم الرئيس السادات شعارى العلم والإيمان ؟! بالإضافة إلى ذلك هناك العنصر **السادس** الذى يتصل بالموروث الثقافى الذى نتج عن التفاعل بين البشر فى وجودهم الواقعى ، ثم انتقل من جيل إلى آخر حتى الحاضر ، اختلط بالدين حينا وبالثقافة العربية أو القبطية حينا آخر ، وبالتفاعل الحادث فى الواقع حينا ثالثة . ويرتبط العنصر **السابع** بالثقافة الغربية التى بدأت تتغلغل فى الواقع المصرى منذ عصر محمد على وأبنائه ، ثم تأكد بصورة واضحة خلال فترة الاحتلال البريطانى لمصر ، حيث اتسعت مساحة القيم والثقافة العربية ، بحيث شكلت هذه الثقافة أساسا لحركة تحرير المرأة وتعليمها وعملها ، وكذلك أساسا لفاعلية النظام السياسى الحديث، إضافة إلى بعض الإصلاحات والتغيرات الاقتصادية الحديثة. ويتصل العنصر **الثامن** بالتوجهات الاستهلاكية التى بدأت تنتشر فى المجتمع فى الحقبة الليبرالية الثالثة والرابعة. وإذا كانت المرحلة الاشتراكية قد أكدت على قيم الإنتاج وشد الأحزمة ، فإن حرمانات

العقود الاشتراكية شكلت الدافع القوى لعقود الاستهلاك فى المراحل الليبرالية.

ونتيجة لذلك تخلقت بنية ثقافية متنوعة وهشة ، فهى متنوعة لأنها تضم عناصر غير منصهرة .. الفرعونية إلى جانب القبطية إلى جانب العربية والإسلامية ، إضافة إلى العلمانية الغربية ومنظومة القيم الاستهلاكية التى بدأت تنضم أخيرا إلى بنية الثقافة والقيم . وهى هشة لأنها فى فضاء المجتمع دون أن تشكل معايير موجهة للسلوك ، ثم هى ضعيفة يمكن أن تزاح بوساطة أى منظومة قيمية أخرى ، باستثناء الثقافة الدينية ، ثم هى إلى جانب ذلك متصارعة لكل منها جماعتها الواقعية الى تحملها ، الأقباط فى مواجهة المسلمين ، والإخوان فى مواجهة الماركسيين . والاشتراكيون فى مواجهة الليبراليين ، الأمر الذى يشير إلى منظومات قيمية متوازية وليس إلى منظومة قيمية واحدة ومتماسكة .

٢ - وتشكل الهجرة الداخلية والخارجية المتغير الثانى المؤثر على بنية الثقافة والقيم . وإذا كانت عقود الخمسينيات وحتى السبعينيات قد شهدت معدلات عالية من الهجرة الداخلية التى تنطلق من القرية إلى المدينة . حيث كان المهاجرون بالأساس من الشباب الذين يبحثون عن فرص الحياة الأفضل فى المدينة أو الحضر . وإذا كانت الإحصاءات تشهد بتفوق الريف على الحضر من حيث عدد السكان . فإن الواقع الآن يشهد بغير ذلك ، الأمر الذى يعنى أن قطاعا سكانيا كبيرا انتقل من القرية إلى المدينة . وخلال هذه الرحلة سقطت المنظومة القيمية التقليدية والقديمة ، ولم يكمل المهاجر استيعاب المنظومة القيمية الحضرية الجديدة . فعاش حياته على هامش ثقافتين ، الأمر الذى جعل سلوكه مجردا نسبيا من

الضبط الثقافى أو القيمى ، تأكيدا لذلك ارتفاع معدلات السلوك المنحرف لدى المهاجرين الجدد ، وبخاصة ساكنى المناطق العشوائية منهم .

ومع بداية السبعينيات ولظروف تنموية فى المجتمع العربى ومجتمعات الخليج ، هاجرت أعدادا كبيرة من المصريين من كل الشرائح الاجتماعية على امتداد خريطة المجتمع . وإذا افترضنا أن حجم الهجرة بلغ مليونين تقريبا ، ويقال أربعة ملايين بمتوسط ثلاثة ملايين ، وإذا افترضنا أن دورة الإحلال بمتوسط أربع سنوات ، وإذا كانت عدد سنوات الهجرة الكثيفة حوالى ٢٧ سنة (١٩٧٣ - ٢٠٠١ ) ، أى حوالى ثمانية أدوار ، وهو ما يعنى أن حجم الهجرة التى قام بها السكان تصل إلى معدلات كبيرة إذا افترضنا أن السفرة لمرة واحدة ولمدة أربع سنوات. وإذا افترضنا أن لكل مهاجر تأثيره فى ثلاثة من الأصدقاء والأقارب ، فمعنى ذلك أن تأثير ثقافة الهجرة التى حدثت تأثر بها غالبية سكان المجتمع العربى . وهو ما يعنى أن غالبية المجتمع العربى قد شاركوا وتأثروا بفعالية فى ظاهرة الهجرة ، ومن ثم التأثر بثقافتها . حيث لعبت هذه الظاهرة دورها فى إضعاف قيم الارتباط بالوطن من ناحية ، لأن مجتمعا آخر هو الذى تولى إشباع حاجات غالبية البشر . ثم هى ساعدت كذلك على نشر ثقافة الاستهلاك ، إما لامتلاك التراكم المالى ، وإما لتهجير أنماط الاستهلاك من مجتمعات الخليج إلى المجتمع المصرى . وينظر أحد الكتاب إلى الهجرة إلى مجتمعات الخليج بصفتها مسئولة عن شيوع الاستهلاك المظهرى والترفى ، كما أنها مسئولة عن تدهور القيمة الاجتماعية للعمل المنتج ، إضافة إلى أن الهجرة قد أسهمت بقدر كبير فى تمزيق روابط الأسرة العربية أو تفتيت علاقاتها وعواطفها . هذا إلى جانب تحويل القرية من الإنتاج إلى الاستهلاك ،



● فالأباء يمتلكون المال الذى جلبوه من الخليج أو هم يستمتعون به هناك

وكذلك دفعت إلى الانصراف عن القضايا القومية والانشغال بالكسب المادى [٩] . وهو الأمر الذى يعنى أن الهجرة إلى مجتمعات الخليج كان لها تأثيرا شاملا وسلبيا على ثقافة المجتمع المصرى ، وكذلك على ثقافة الشباب . فقد أصبح الشباب أقل انتماء لوطنه ، لأنه قد أدرك أو سمع عن مجتمع يقدم إشباعا أفضل وأكمل مما يقدم له . هذا إلى جانب تأكيد القيم الاستهلاكية فى بناء الشخصية الشابة ، فالأبناء يمتلكون المال الذى جلبوه من الخليج أو هم يستمتعون به هناك ، وهو يكفى لاستهلاك فترة من الزمن نركن فيها إلى المتعة والراحة ، إلى جانب ذلك تأثرت روابط الشباب بأسرهم ، فالعواطف والعلاقات تشيأت وأصبحت ذات طبيعة مادية . وما لم نقله أن ثراء الإعارة حوّله بعض الأبناء إلى وجهات انحرافية كتعاطى المخدرات على سبيل المثال .

٣ - ويعد الحراك الاجتماعى المتغير الثالث الذى كان له تأثيره السلبى على ثقافة وقيم المجتمع . ولقد بدأت موجات الحراك بفعل ظروف عديدة، منها : التوسع الكبير فى التعليم ومد مجانية التعليم إلى التعليم الجامعى ، والإسراع فى التنمية الصناعية ونمو المؤسسة العسكرية وتزايد امتيازاتها ، كذلك نمو البيروقراطية المصرية بسبب تزايد تدخل الدولة فى الحياة الاجتماعية والسياسية والتزام الدولة بتعيين الخريجين [١٠] . يضاف إلى ذلك الحراك الرأسى ، حيث ينتهى الشخص من خلال الحراك الاجتماعى إلى طبقة اجتماعية غير تلك التى بدأ منها . وفى أثناء عملية الحراك الاجتماعى يتخلى الشخص عن قيم قديمة لسياق اجتماعى سابق ، ليكتسب قيم سياق جديد ، غير أن المعانى لا تسقط فجأة ولا تكتسب فجأة كذلك ، حيث يظل الإنسان المتحرك هامشيا بالنسبة لمنظومات القيم

فى السياقات التى يتحرك من خـلالها ، الأمر الذى يجعله فى النهاية ذا التزام قيمى ضعيف ومحدود ، مما يبقى على قيمـه الخاصـــة وتظل للأنانيـة قـوتها وفعاليتها فى توجيه سلوكياته .

يضـاف إلى ذلك أن غالبيـة الذين تحركـوا وبخاصـة فى الفترة القوميـة والاشتراكيـة كـانوا من أبناء الطبقة المتـوسطة الذين تحيـزت لهم الأنظمـة السيـاسيـة خـلال عقود الخمسينيـات والستينيـات والسبعينيـات ، حيث منحتهم حقوقا وامتيازات كثيرة على مختلف الأصعدة ، كما أجزلت الدولة لهم العطاء بكرم دون أن يقدموا المقابـل إخلاصا وولاء وعملا . ومن ثم ، فقد تعـاملوا بقيم أنانية وانتهازية ، وقد تجلت هذه الأنانيـة فى تعاملهم مع الوظائف العـامـة وكأنها ملكيـة خـاصـة لهم فنشروا الفسـاد والرشـوة فى البيروقراطية، واستخدموا وظائفهم العامة فى الكسب وتكديس الثروات. وحينما تولوا القيادة والإشراف على القطاع العام حوّلوا أرباحه لصالحهم . وأيضا حينما تولوا وظائف التعليم والوظائف الجامعية لم يتصرفوا بشفافية، فهم الذين أبدعـوا الدروس الخصـوصيـة على حسـاب انحـدار مستـوى أدائهم فى التعليم الرسمى . وفى الجامعة هم الذين قدموا صناعة المذكرات والكتب الجامعية ، ناهيك عن السرقات العلمية والانحـرافات الأخلاقية التى أصبحت وقائع ملموسة ومستمـرة ، وهى قيم انتهازية لأنهم اعتادوا التعامل مع كل دولة ورجال . كـانوا أعضاء بارزين فى الاتحاد القومى ، ثم روادا ذوى توجهـات اشتراكيـة فى الاتحاد الاشتراكى ، ثم أصبحـوا أكثـر القيادات ليبرالية فى الحزب الوطنى الديمـوقراطى ، فهم على استعداد لبيع ولائهم لأى سيد أو سلطان .

ومن الثابت علميـا أن الحراك الاجتماعى من شأنه أن يؤسس حالة من المرونة الأخلاقية ، والإنسـان المتحرك يتعامل بقيم السياق الـذى يعايشه. ليست لديه قيما مطلقـة ، على الـرغم من أن الأخـلاق مطلقـة بطبيعتهـا ، ليست لديه التزامات بقيم أو موضـوعات أساسية ، سوى تلك التى تيسر حركتـه . هو « إنسان فندقى » على مـا يؤكد « بيترم سروكين » ، ليس لديه سوى الالتـزام بمصالحه ، لا تربطه بالسياق أو المكان روابط عـاطفية ، كما لا يكون لديه التزام بأخلاق السياق ، الأمـر الذى يساعد على إضعاف بنية الثقافة والقيم فى المجتمع .

ومن الطبيعى أن تنتقـل هذه الثقــافـة إلى الشبـــاب ، من الآبـاء الذين يشكلون أصبحوا نماذج لهم ، فثقـافتهم لا تؤكد على روابط قـوية بالوطن. والآباء قـــد استطاعــوا تكويـن الثــروة التى يمكن أن تشكـل رصيـــدا للاستهلاك ، وإذا كـان الآباء قد انتقلوا من خـلال الحراك إلى طبقة أعلى ، فليعبث الشبـاب استهلاكـا بأموال حصل عليهـا الآباء من كل اتجاه . ولا قداسة لقيم كثيرة ، فالآباء لم يقدسوا قيما وهم يجمعون الثروة .

٤ - ويعـد الإعلام من المتغيرات التى ضخت قيما متناقضـة ومنحرفـة فأشـــاعت الفـوضى فى ثقـــافـة المجتمع . وإذا تناولنـا دور الإعـلام على المستوى القـومى ، فسوف نجد أنـه يبث فى أحيان كثيرة مضامين إعـلامية تتناقض مع احتياجـات الواقع . فقد يعمل الإعلام بوسـائله المختلفة على نقل تيارات وأفكار وصـور لنماذج لا تتلاءم ونظائرها فى الثقافـة القومية . ومن ثم يتخلق تناقض أو عـدم تكامل فى بنيـة هذه الثقـافة . أو قـد تعمل وسائل الإعـلام بطريقة عشوائيـة غير ملتزمة بأى تـوجيه أيديولوجى ذى

صلة بالسياق القومى ، ومن ثم تكون غير قادرة على تحديد المضمون الإعلامى الذى ينبغى نشره ، أو عجزها عن تحديد الأطر والسياقات التى ينبغى التوجه إليها ولأى هدف (١١) . ونتيجة لذلك قد تحدث ظواهر كثيرة ، أولها استيراد قيم استهلاكية تتناقض مع متطلبات عملية التنمية التى يقودها المجتمع . إضافة إلى الاستيراد غير الواعى لأفلام وتمثيليات قد لا تطرح المثال الواجب احتذاؤه . فمثلا هناك اعتقاد بأن أفلام العنف الأمريكية كانت وراء أحداث العنف التى انتشرت عبر العالم (١٢) . أو قد يحدث تناقض إعلامى واضح وصارخ بسبب الحيرة والإرباك للشباب ، ذلك يحدث حينما يقطع إرسال بث مادة هزلية لكى نسمع الأذان وأحاديث الرسول (١٣) . هنا يثور تساؤل حول أى قيم نعتقد، وأى ثقافة نستوعب ، وأى مثال أو نموذج نحتذى .

لقد بدأ الإعلام فى عصر العولمة يلعب دورا مفككا للثقافة القومية لصالح الثقافة الأمريكية التى هى الثقافة المراد عولمتها . فى هذا الإطار، فإن القول بالقرية الكونية يحتوى على مضامين خفية ، منها ما يؤكد على أن كل شىء فى العالم بات مفتوحا على الأثير اللامتناهى ، والهيمنة الفعلية لمن يمتلك وسائل الإعلام الأكثر قوة والأكثر فعالية . وهذا ما أعلنه «جوزيف ناى » الأمين العام لوزارة الدفاع الأمريكية ، حيث أكد على أن « الدولة الأقوى هى التى تتبوأ عرش ثورة المعلومات » ، ولم يخف « ديفيد روشكوف » المدير الحالى لمعهد كيسنجر فهمه لمضمون القرية الكونية عندما قال : « إن الهدف الأساسى للسياسة الخارجية فى عصر المعلومات ، هو الفوز بالسيطرة على موجات البث مثلما كانت بريطانيا تسيطر على البحار » . ويضيف موضحا : « أن من مصلحة الولايات المتحدة إذا

تواصلت أطراف العالم عبر الراديو والتلفزيون والموسيقى أن تكون القيم الأمريكية هى قيم العالم المشتركة (١٤). يضاف إلى ذلك شبكة الإنترنت واستخدام الشباب لها، قد تستخدم فى جوانب نافعة، غير أن لها جوانب واستخدامات منحرفة كذلك، حيث تؤكد شهادات شجاعة لبعض الشباب أنهم يتبادلون مع الأصدقاء مشاعر الحب ومواعيد اللقاء على شبكة الإنترنت، فى حضور الآباء الذين لا يعرفون شيئا عن هذه التكنولوجيا»(١٥).

ذلك يعنى أن الإعلام لم يعد آلية لتأكيد الثقافة القومية، ولكنه أضحى سلاحا لتنحيتها لصالح ثقافات غربية. وفى هذا الإطار فإن الإعلام يؤدى دوره فى تفكيك الثقافة القومية على عدة مستويات. المستوى الأول ويتمثل فى تأسيس تناقض داخل الثقافة القومية، حيث يبث ذات الجهاز المسلسلات والإعلانات التى تمجد الخيانة وسلوكيات الانحراف، وفى الوقت ذاته يعرض لبعض المادة الدينية التى تبشر بقيم النقاء والطهارة، الأمر الذى يخلق لدى المشاهد - كما أشرنا - حالة من الحيرة والإرباك، أو حالة تساوى فيها بين كل القيم، منحرفة كانت أم سوية، وهو ما يجعل المشاهد يقبل القيم المنحرفة كما قبل القيم السوية. ويسعى الإعلان من خلال المستوى الثانى إلى استبدال الثقافة الغربية والأمريكية بالتحديد بالثقافة القومية. ولنشاهد مثلا عروض الأزياء التى يذيعها التليفزيون المصرى كدولة عربية وإسلامية، حيث الصدور والسيقان العارية ويكاد يكون الجسم كله، ألا يتناقض ذلك مع قيم عربية تحض على النقاء والطهارة! أليس هناك تناقض بين الحركة القومية الغيورة للمرأة من أجل

المشاركة فى تحمل أعباء التنمية والإنتاج وبين الإعلام الرسمى الذى يقدمها كسلعة أو كآلية تساعد على تتجير السلع والملابس ؟! وعلى المستوى الثالث تعمل تكنولوجيا المعلومات والإعلام على تخريب الثقافة ، بنشر أفلام الخلاعة والرموز الجنسية . حيث توسيع مساحة الجنس والغرائز فى دائرة اهتمام ووعى البشر ، وبخاصة الشباب . كأنما يلعب الإعلام دورا مرسوما له لاغتصاب الثقافة القومية ، تارة بخلق التناقض بداخلها ، وتارة ثانية باستبدالها بثقافة غريبة أو غربية ، وتارة ثالثة بتوسيع مساحة الغريزة على حساب انكماش مساحة المعانى السامية . إن كان ذلك الأداء الإعلامى مرسوم وعن وعى فهو بلية ، وإن كان أداء عشوائيا عن غير وعى فالبلية أعظم !!

٥ - وتضرب أيديولوجيا العولمة الثقافة ضمن ما تضرب . وبغض النظر عن دفاعات العولمة ، فمما لا شك فيه أن العولمة الحالية متميزة وتهيمن عليها الولايات المتحدة كقوة مسيطرة فى عالمنا . يشخص ذلك الباحث الفرنسى « مارك أوجيه » مشيرا إلى غزو الصور الذى صار يغطى الأرض كلها بأنه « غزو يشنه نمط جديد من الخيال الذى يعصف بالحياة الاجتماعية ، يصيبها بالعدوى ويخترقها إلى حد أنه يجعلنا نشك فيها ، فى واقعها ، وفى معناها ، وفى المقولات الخاصة بالذات والآخر التى تتولى تكوينها وتعريفها » . وينبه وزير الخارجية الكندى السابق «فولكنر» إلى أحد أبعاد الهيمنة المنفردة للولايات المتحدة على العالم بقوله : « إذا كان الاحتكار أمرا سيئا فى صناعة استهلاكية ، فإنه أسوأ إلى أقصى درجة فى صناعة الثقافة ، حيث لا يقتصر الأمر على تثبيت الأسعار وإنما تثبيت الأفكار أيضا » (١٥) .

ولا يتوقف الأمر عند إدراك الباحثين لخطورة العولمة على بنية الثقافة القومية، ولكنه يتعداه إلى سياسات الدول المتقدمة التى أدركت خطورة الاستقرار والهيمنة على مقدرات العالم وثقافاته. ففى فرنسا هناك إجماع على اتخاذ كل الإجراءات الكفيلة بحماية اللغة والثقافة الفرنسية من التأثير الأمريكى، ومنها إصدار قانون يلزم محطات البث التلفزيونية ألا تزيد نسبة البرامج الأجنبية من إجمال البث عن ٣٠٪. وفى اتفاق التبادل التجارى الحر بين أمريكا وكندا، فرضت الحكومة الكندية على الإدارة الأمريكية استثناء كل الصناعات الثقافية والإعلامية من الاتفاق المذكور[١٦].

ولم تكن دول عدم الانحياز أقل تخوفا من مفاعيل العولمة وآثارها. فقد ورد فى البيان الختامى لمنظمة دول عدم الانحياز «أن العولمة تشكل تهديدا خطيرا للحريات التى أُكتسبت حديثا ما لم تتم حماية مصالح دول الجنوب بصورة فعالة... إن العولمة يجب ألا تجتاح الجميع أمامها، ويجب ألا تتسم بالشمولية، بل ينبغى أن تتم بشكل تدريجى، وبأسلوب يكون معه للغالبية التى تمثل البشرية رأى فيه، وألا يقتصر الأمر على قبول الغالبية لما تراه الدول المتقدمة فقط»[١٦]. ولعل أبرز تشخيص لماهية العولمة وأهدافها ما يذكره البيان الختامى لندوة القاهرة حول صراع الحضارات أم حوار الثقافات؟ بقوله: «إن الفكر الأمريكى يقود الحضارة اليوم، وهو يحاول تفريغ الإنسان من الشعور، محاولة منه إرساء نفسه بصفته يمثل الحضارة الوحيدة، وهو يختزل التنوع الثقافى وينظر إلى تجاربه باعتبارها تجارب كونية»[١٧].

وتسعى العولمة بأساليب عديدة لتجاوز الثقافات القومية من جوانب



● الأمـر الذى يدفع الآباء إلى إلحاق أبنائهم بالتعليم الأجنبى ، ذلك بطبيعـة الحال على حساب اللغة الوطنية

وأبعاد مختلفة ، فهى تشكل اغتصاب وعدوان رمزى على الثقافة . وهى بذلك فعل عنيف للاختراق الذى يجرى بالعنف المسلح فيهدر سيادة الثقافة القومية فى سائر المجتمعات التى تفرض عليها العولمة . بذلك تصبح العولمة نوعا من السيطرة الثقافية الغربية على سائر الثقافات بواسطة مكتسبات العلوم والتكنولوجيا فى ميدان الاتصال (١٨) . الأمر الذى دفع أوربا إلى إدراك خطورة العولمة الأمريكية فرفعت شعارات « الاستثناء الثقافى » .

وتعد اللغة هى المدخل المثالى لتقويض بنية الثقافة . فمثلا يلاحظ أن اللغة المستخدمة والسائدة فى الإنترنت هى اللغة الإنجليزية ، إضافة إلى أن أغلب المعلومات الواردة على الشبكة واردة من الولايات المتحدة . الأمر الذى يخلق حالة من الاعتماد على استخدام اللغة الأجنبية محل اللغة الوطنية من قبل أجيال الشباب ، حتى تصبح اللغة الوطنية غريبة على أجيال عديدة فى وطنها (١٩) . يضاف إلى ذلك أن العولمة تعتمد على الشركات المتعددة الجنسية ذات الرواتب العالية التى تستخدم اللغة الإنجليزية كلغة للتعامل ، الأمر الذى يدفع الآباء إلى إلحاق أبنائهم بالتعليم الأجنبى ، ذلك بطبيعة الحال على حساب اللغة الوطنية ، وقد بلغ الشعور يتدنى باللغة الوطنية مقارنة باللغة الأجنبية ، تأكيدا لذلك أن غالبية رجال الأعمال يطلقون على شركاتهم أسماء أجنبية مثل : « سيدكو »، و « أمانكو » ، وغير ذلك من الأسماء التى تتداخل فيها أجزاء وطنية مع كلمات أجنبية ، وتكون النتيجة الإضرار باللغة الوطنية الأمر الذى دفع وزير التموين المصرى فى سنة ١٩٩٩ إلى إصدار قرار بفرض تسمية الشركات العاملة فى مصر والعلامات التجارية بأسماء عربية إلى جانب

الأسماء الأجنبيـة . وهو القـرار الذى لقى معـارضـة من رجـال الأعمال المصريين والغرفة التجارية .

وعلى صعيد الثقافة تسعى العولمة إلى تحقيق حالة من الشمولية الثقافية ، لأنها تسعى إلى فرض ثقافة واحدة ونمط وحيد للحياة على الأمم ، وحينما تبشر العـولمة بانتهـاء عصر الأيديولـوجيـات ، فإنها تفسح الطـريق لأيديولوجيا وحيـدة مهيمنة لا تعترف إلا بثقافة واحـدة ، بما تنطوى عليه من أنماط إنتاج واستهـلاك وحياة واحدة . ولا يـرجع انتشار ثقافـة العولمة إلى كـونها أكثر إنسـانيـة من غيرها ، ولكنها ثقـافـة « الغالب » وانتشـارها يرجع إلى أن المغلـوب ( حسبما يذهب ابن خلدون ) مـولع أبدا بثقـافـة الغالب فى زيه وسائر عوائده [٢٠] . وكذلك لأن ثقافة العولمة قد جاءت إلى مجتمعات العالم الثالث وهى فى أسـوا ظروفها ، وفى أقل الحالات استعدادا للاستفادة منها [٢١] .

وإذا كانت المتغيرات السـابقة قد لعبـت دورها فى إضعاف بنية الثقـافة والقيم فى المجتمع العـربى ، فإن مؤسسـات التنشئة الاجتماعية التى تتـولى الحفـاظ على الثقـافة كـانت منهـارة ، ومن ثم كـان أداؤها سلبيـا ، بحيث سـاعـدت بدورها على تفكيك الثقـافـة ولم تحافظ عليهـا « فبسبب كثـافـة وخطورة الاختراق الثقـافى الـذى تعـرض له نسق الثقـافـة ونظام إنتـاج الرمـوز فى المجتمع العربـى ، فإن مؤسسـات الاجتماع والثقـافة التقليـدية وهى الأسرة والمدرسة لم تعودا قـادرتين وفق صيغ أدائهما الحالية على حماية الأمن الثقـافى للمجتمع ، والوفـاء بحـاجـات الأفـراد من القيم والرمـوز والمعـايير والمرجعيـات ، التى أصبحت تصـاغ خـارج حـدود الجغـرافيـا والاجتماع والثقافة الوطنية » [٢٢]. وهو ما نعرضه له فيما يلى .

٦ - وفيما يتعلق بالأسرة بصفتها متغيرا لعب دورا فى إضعاف منظومة الثقافة والقيم ، فإننا نجد أن الأسرة فى المجتمعات الحديثة تنتابها مجموعة من المتغيرات التى تعجزها عن دعم ثقافة المجتمع ، وربما تعجزها كذلك عن القيام بتنشئة اجتماعية سوية للأبناء . ولتوضيح ذلك نجد أن بناء الأسرة من أسرة ممتدة تحيط بها هالة من العلاقات القرابية القوية إلى أسرة نووية ، تعيش كذرة عاجزة فى فضاء المجتمع ، خرج منها الأجداد ، حاملى التراث والقيم والتقاليد ، وابتعد عنها الأقارب الذين كانوا يشكلون إطارا ضابطيا وعاطفيا فى ذات الوقت . ويصبح هزال الأسرة أعظم حينما تعمل المرأة ، تنفق شطرا من وقتها واهتمامها فى العمل ، وليس هناك من يرعى الأبناء فى حالة غيابها ، فإذا هى عادت من العمل إلى الأسرة ، فهى إما منهكة جسديا يضاف عليها عبء الأسرة ، فيكون أداؤها ضعيفا فى التنشئة ، أو أنها شاعرة بالذنب للتقصير فى حق الأبناء فيصبح الإنهاك سيكولوجيا ، ويتأثر دورها فى التنشئة بطريقة أو بأخرى . وتستمر هذه الأسرة فى أدائها الضعيف حتى النضج الفسيولوجى أو الاجتماعى للأبناء، وعندها يحدث الخروج على نظام الأسرة، ومن الخروج على الأسرة إلى الخروج على نظام المجتمع، وينشأ الأولاد ذوى انتماءات أو ولاءات ضعيفة سواء بالنسبة للأسرة أو المجتمع .

وبسبب الظروف الاقتصادية قد يقضى الأب غالب وقته فى العمل أو الأعمال سعيا وراء دخل ملائم لإشباع احتياجات الأسرة ، أو قد يهاجر إلى مجتمعات الخليج ليحقق هذا الإشباع من أوسع الأبواب وأكثرها ملاءمة. وهنا يغيب نموذج الأب عن الأسرة ويحدث تأنيث للأسرة ،

وبغياب نموذج الأب تحدث تنشئة اجتماعية غير مكتملة . عنصر الذكورة غائب عنها ، وإذا كانت الأم عاملة كذلك ، فإن التنشئة الاجتماعية تصبح إلى جانب كونها مشـوهة ناقصة كذلك . ومن ثم تصبح تنشئة الأبناء معرضة لفاعلية آليات أخرى للتنشئة غير الأسرة . وقد يلعب الإعلان والإعلام دوره فى التنشئة ، حيث ينشأ الأبناء وفق إعلام لا يؤكد على قيم المواطنة قدر ما يؤكد على قيم الإعجاب بنماذج عالمية . وقد يزداد الأمر سوءًا حينما يتم تنشئة الأبناء من خلال الإعلام على الجنس المعلّب فى أفلام الفيديو ، أو المنساب والمرسل من خلال الفضائيات ، لتحل محل الأسرة فى غرس قيم غير سوية من خلال تنشئة اجتماعية منحرفة . وإذا ضعفت الأسرة ولم تعد مركز جذب فجماعة الأصدقاء لها جاذبيتها الآن . ولأن الأسرة لم تغرس قيم السواء بفاعلية ، فلينطلق الأبناء من خلال المخدرات إلى عالم الجنس والمتعة، وأثناء ذلك تسقط قيمٌ كثيرة ، أولها قيمة الأسرة ذاتها ، وتصبح نماذج الأب والأم نماذج ضعيفة غير رادعة . وتبدو الأسرة التى كانت مقدسة ضعيفة سقطت عنها كل تجلة وتقديس . إذا حدث ذلك فلا مانع من أن يخرج الأبناء على الآباء ، فهم نماذج ضعيفة ومرفوضة وبالية من ناحية ، ثم إن الوجدان لم يحمل لهم قيما أو قداسة من ناحية أخرى . وفى هذا الإطار يتآكل دور الأسرة كمصدر من مصادر ثقافة الشباب ، لأنها لم تكن إحدى الآليات القوية للتنشئة الاجتماعية .

٧ ـ وما أصاب الأسرة أصاب التعليم كذلك ، وإذا كانت الأسرة تتولى غرس القيم ذات الطبيعة الوجدانية ، فإن المدرسة تعمل على غرس القيم ذات الطبيعة التفضيلية والإدراكية والوجدانية كذلك . غير أن تأمل أوضاع التعليم يكشف أنه لم يعد هو الآخر قادرا على غرس القيم . بداية

سقطت التربية عن التعليم فأصبح تعليما فقط . فالمدرسة لم تعد إطارا لغرس الأخلاق . فاليوم المدرسى قد انكمش إلى عدة ساعات محدودة الغرض منها أن يتم تعليم مضامين المقررات المدرسية . ولذلك ، فإذا كانت الأسرة قد غرست نزرا يسيرا من القيم ،فالمدرسة لم تعد قادرة على متابعة ما تم غرسه . يضاف إلى ذلك أن التعليم يتم فى المدرسة بلا قدوة ولا نموذج .فحينما يتكاسل المدرس ولا يشرح الدرس للتلاميذ ، ويدخر جهده للدروس الخصوصية ، يدرك الطلاب أن التعليم أصبح سلعة ككل السلع تخضع لآليات السوق ، ولا دخل للعلاقات الإنسانية والتربوية فى هذا الإطار . وحينما يصرح مسئول كبير : أن هناك « كومبيوتر لكل تلميذ» أو « أن المبانى المدرسية جاهزة وعلى أحسن حال » ، ثم تتساقط المدارس لتزهق الأرواح ، يدرك الطلاب أن الكذب يملأ الفضاء من حوله . وحينما يدخل الكسالى أبناء الأثرياء كليات القمة فى الجامعات الأهلية ، أو يلتحقون بأقسام اللغات فى الجامعات الحكومية ، فإن هذا الوضع يعمق الإحساس بالظلم الاجتماعى والغضب من الوطن ، الذى يؤكد التعليم فيه على دونية ما هو عربى وما هو قومى ، ومن بينها اللغة والثقافة فى نظر الشباب .

بالإضافة إلى ذلك ، فإن الدروس الخصوصية أثقلت كاهل الأسر ، وأضاعت المعلم الذى كان نموذجا يقتدى ، وجعلت الشباب على عداء مع المجتمع وثقافته . وحسب دراسة أجريت حول هذا الموضوع أوضحت أن ٩٩,٦ ٪ من أبناء الفقراء يأخذون دروسا خصوصية ، فى مقابل ٩٨ ٪ من أبناء الطبقة المتوسطة ، فى مقابل ٨٦ ٪ من أبناء الشرائح الغنية . وأن إجمالى ما يحصل على دروس خصوصية حوالى ٩٥,٢ ٪ من

الطلاب فى مختلف الشرائح الاجتماعية . فإذا تأملنا هذه الظاهرة فى نطاق التعليم الجامعى بين الشباب لوجدنا ٥١,٣ ٪ من طلاب الجامعة من أبناء الطبقة المتوسطة ، فى مقابل ٦٠,٥ ٪ من أبناء الأغنياء [٢٣]. وفيما يتعلق بالمنفق على الدروس الخصوصية من ميزانية الأسر نجد أنه ينفق على الدروس الخصوصية نسبة ٥٩,٩٦ ٪ من إنفاق الفقراء على التعليم. ونحو ٥٣,٤ ٪ من إنفاق الطبقة الوسطى على التعليم، ونحو ٥٥,٩ ٪ من إنفاق الأغنياء . ويرتفع الإنفاق على الدروس الخصوصية فى الحضر إلى ٥٩,٧ ٪ من إنفاق الأسر الحضرية مقارنة بنحو ٤٨ ٪ من إنفاق الأسر فى الريف [٢٤].

وهو ما يعنى أن المدرسة لم تعد آلية لتنشئة الثقافة ، ولم تنجح حتى فى تزويد التلاميذ بالمعارف التى توسع مداركهم وتعمق نظرتهم للحياة . وبطبيعة الحال فإن هذا القصور فى الأداء التعليمى يشمل النظام التعليمى بكافة مستوياته وحتى التعليم الجامعى . بالإضافة إلى أن تحويل التعليم إلى سلعة بين الأستاذ والطالب أو التلميذ من شأنه أن يسقط عنه كل المثل والقيم النبيلة .

ذلك يعنى أن الأسرة والمدرسة كآليات تقليدية للتنشئة الاجتماعية قد أصابها الإنهاك ، ولم تعد تؤدى دورها بالمستوى الملائم ، الأمر الذى أفسح المجال أمام فاعلية الآليات الأخرى ذات التأثير السلبى على الثقافة ، فأصبحت ثقافة عاجزة عن ضبط سلوكيات البشر فى المجتمع ، وبخاصة الشباب . ذلك يعنى أن الثقافة القومية التى من المفترض أن تشتق منها ثقافة الشباب تتعرض لبعض المتغيرات والظروف التى أضعفت فاعليتها . فمن ناحية نجد أن التحولات الاجتماعية الاقتصادية قد ساعدت على هز بنية الثقافة والقيم وإضعافها دون أن تؤكد على منظومة قيمية محددة لها

استمرارها ، لكونها تشكل الأساس القاعدى للمجتمع ، ومن ثم وجدنا التفاعل الاجتماعى يتحقق عشوائيا دون قيم توجهه ، إن لم يوجه بقيم منحرفة أو مشوهة . ومن ناحية ثانية ، لاحظنا عجز الوسائل التقليدية كالأسرة والمدرسة عن إعادة إنتاج الثقافة من خلال عملية التنشئة الأمر الذى جفف ينابيع الثقافة عموما ، وثقافة الشباب بخاصة ، الأمر الذى أدى إلى تفريغ الساحة لآليات ثقافة العولمة المخترقة والثقافة الاستهلاكية التى تصنعها وسائل الإعلام والإعلان ، وهو ما سوف نعرض له من خلال الفقرة التالية .

■■■

# الفصل الثالث

# ثقافات الشباب ..
# أنماطها الأساسية



● فإن انهيار الثقافة يضعف روابط الأفراد بالمجتمع

على نحـو ما أشرنا تعـرضت ثقافـة المجتمع المصرى لفاعليـة متغيرات عديـدة أضعفتها . فقد عملت التحـولات الاجتماعية الاقتصـادية على هز استقرار منظومة القيم ، واستبـدال عناصر فيها لتحل محل عناصر أخرى ، ألغيت باستمـرار قيم واستبدلت بتـوجهات قيمية تغيرت قبـل أن تستقر . كما سـاعد الحراك الاجتماعـى بكل أنواعه على هجـر البشر لقيم كـانت لها فاعليتها ، وتبنيهم قيما جديـدة لم تستقر بعد ، وربما غير قادرة على الضبط . ومؤسسات التنشئـة الثقافية ضعيفة ، تشوه الثقـافة أكثر مما تعيـد إنتاجها . بحيث وجدنا أنفسنا فى النهاية أمام انهيار الثقـافة وغياب القواعد وانتشار حـالة « الأنومى » ، وهى الحالة التى تعنى أن ثمـة واقعا اجتماعيـا لا يسير فيه التفاعل الاجتماعى بحسب قاعدة (٢٥) . وإذا تأكد لنا أن ثقافة المجتمع تشكل المحـور أو المركـز الذى ينجذب إليـه الأفـراد ، فإن انهيـار الثقافـة يضعف روابط الأفـراد بالمجتمع ، بحيث يدفعهم ذلك إلى الارتبـاط بأطر منحرفـة أو استهلاكيـة أو تنزع الفرد عن أمتـه ، المهم أن بها جاذبيـة تفوق جاذبية الثقافة الأم ذاتها . مثل هذه الأطر تشكل ثقافات وممارسات منعزلة – ولا أقول فـرعية – يعيش فى إطارها الشباب ، ونذكـر فيما يلى بعضا من هذه الثقافات :

١ - تعد ثقافة العولمة هى أول الأطر جاذبية للشباب . وتعنى العولمة بتحديد صريح سيطرة ثقافة أجنبية على الثقافة القومية أو أنها تسعى لتحل محلها . فليس صحيحا أن العولمة الثقافية هى الانتقال من حقبة ، أو ظاهرة، الثقافات الوطنية والقومية إلى ثقافة عليا جديدة هى الثقافة العالمية أو الكونية على ما يدعى المروجون لثقافة العولمة ، ولكن العولمة تسعى للقضاء على الثقافة واللغة القومية على السواء . وإذا كانت اللغة العربية هى لغة الحوار والتفاعل بين الشباب ، فإن هذه اللغة أصبحت الآن تتعرض لهجوم شامل ومن اتجاهات عديدة . حيث يعد الهجوم على اللغة الطلقة الأولى فى الهجوم على الثقافة . وأول أساليب الهجوم يتمثل فى أن اللغة الإنجليزية هى لغة تكنولوجيا الاتصال والإعلام والمعلومات . فاللغة المستخدمة فى الإنترنت هى اللغة الإنجليزية ، إضافة إلى أن أغلب المعلومات الواردة على الشبكة واردة من الولايات المتحدة الأمريكية ، مما جعل لها وضع الأفضلية فى مجتمع المعلومات العالمى (٢٧) . ومن شأن ذلك أن يجذب شريحة من الشباب ، لتنفصل عن بقية القاعدة الشبابية . حيث تنجذب هذه الشريحة إلى كل ما هو أجنبى ، لأن فيه إشباعا لحاجتها إلى الاستطلاع ، وبذلك يتخلق وضع يبدو فى إطاره ما هو أجنبى بصفته أرفع مستوى ، وما هو محلى أقل ، ومن ثم يتحقق الانسلاخ عن الثقافة القومية والمجتمع .

يضاف إلى ذلك أن العولمة أتاحت الفرصة الأوسع للاستثمار الأجنبى ، وطبيعى أن تستخدم الشركات الأجنبية اللغة الأجنبية كلغة أساسية للتعامل فى داخلها . وعلى الذين يلتحقون بها أن يتقنوا هذه اللغات . ومن ثم حدث انقسام فى سوق العمل ، الوظائف ذات الرواتب العالية هى فى

الغالب لمن يتقنوا اللغات الأجنبية أو الذين تعلموا تعليما أجنبيا ، على حين الفرص النادرة والرواتب الضعيفة من نصيب الناطقين بالعربية فقط . بحيث ساعدت سوق العمل على توسيع نطاق التعليم باللغات الأجنبية أو التخلى عن اللغة العربية . فإلى جانب الجامعة الأمريكية والجامعات الأهلية الخاصة اتجهت الجامعات الحكومية إلى استحداث أقسام للتدريس باللغات الأجنبية فى العلوم الإنسانية والطبيعية على السواء ، باعتبار أن هذا النمط التعليمى يتيح فرصا أفضل للعمل والدخل . وإلى جانب أن هذا التطور يؤسس نوعا من الطبقية داخل النظام التعليمى ، فإن من شأنه كذلك أن يضعف الارتباط باللغة العربية أو يضعف الرغبة فى الدراسة بها. ومن الطبيعى أن يؤدى هجر اللغة إلى هجر الثقافة والقيم المرتبطة بها ، وبذلك يتأسس فراغ لغوى وثقافى تتدفق اللغات والثقافات الأجنبية إلى ملئه .

وإذا كانت الحالة الطبيعية لأى مجتمع أن تكون ثقافته مرتبطة عضويا ببنائه ، لكون أن هذه الثقافة إما منحدرة من التراث الذى تراكم تاريخيا ، وإما أنها نتاج للتفاعل الاجتماعى الحادث فى المجتمع ، فإن ثقافة العولمة ثقافة واردة من الخارج ، ولذلك فهى لا تكون مرتبطة عضويا ببناء المجتمع القومى ، وذلك لكونها ليست تعبيرا عن تفاعل البشر وسياقهم الاجتماعى . وعلى هذا النحو يتشكل وعى الشباب وفق ثقافة وقيم لا صلة بينها وبين النظام الاجتماعى الذى ينتمون إليه . وحين يتفاعل البشر وفق منظومات من الأفكار والقيم التى لم تخرج من رحم التطور الاجتماعى الطبيعى لا يبقى ثمة ما يدعو إلى استصغار الأمر . إذ من رحم هذا الانفكاك والتجافى والخلل فى البنى الاجتماعية ، ستتناسخ أنواع

أخرى من التجافى والخلل فى البنى الاجتماعية ، مما يعرضها لتشويه مضاعف يضاف إلى التشوه الخلقى الأصلى الذى نشأ عن تحديث رث شهدته هذه البنى دون الاستناد إلى أية مقدمات أو أصول (٢٨) .

ولذلك نتائج عديدة ومؤلمة ، منها تأثر انتماء الشباب لمجتمعهم وثقافتهم . وإذا كانت المقولة الأولى للعولمة أنها تشكل تجاوزا للحدود القومية ، فإنها فى الوقت نفسه تشكل مقدمة للقرية الكونية التى توحدها وسائل الاتصال والمعلومات ، حيث يتحول الإنسان الذى يستوعب مفرداتها إلى إنسان جديد يأخذ ملامحه من عصر جديد ، ولغته من لغة المسيطر ، وبالتالى يغدو انتماؤه للقرية الكونية أقوى من الانتماء لأمته أو قوميته (٢٩) . واستنادا إلى ذلك يتحول الشباب الذى استوعب هذه القيم إلى إنسان عالمى متحرر من الانتماءات اللغوية والقومية والثقافية والدينية وحتى الجغرافية . فبالإضافة إلى الحديث عن عولمة السوق والمدينة والسياسة ، ثمة من يتحدث عن «عولمة الأنا» ، حيث تتحول الهوية إلى أسطورة فى عالم يستطيع أى إنسان فيه وعبر الشبكات الإلكترونية أن يصبح سائحا جوالا عبر الأمكنة دون أن يبرح مكانه ، فالعولمة تخترق اليوم جدران « الهويات المغلقة » ، وتجعل الحديث عن « الإنسان العالمى » أمرا ممكنا (٣٠) .

وإذا كان المجتمع – وبخاصة مجتمعات العالم الثالث – يسعى إلى تعبئة شبابه وفق توجهات ثقافية محددة ، وهو ما يعنى أن ينظروا إلى تنمية الوطن ، وصراعاته على الصعيد العالمى من وجهة نظر وطنية ، وهى بطبيعتها متميزة لأن الوطن مرجعيتها ، فإن العولمة تهدد بحرمان الوطن من هذه القدرة على التعبئة لأنها تعرض على الشباب النظر إلى أحداث

الوطن ومشكلاته من زواية موضوعية ، الأمر الذى ينهى إلى غير رجعة قدرة المجتمع على تعبئة شبابه فى اتجاهات محددة . مؤشر ذلك ، هل كنا نتوقع ومازال الصراع العربى الإسرائيلى مستمرا أن يتزوج بالمئات شباب مصريون من إسرائيليات ؟! وهل كنا نتصور إسقاط بعض المستثمرين العرب لقيم النخوة العربية مقابل الاستثمار فى صناعة الإلكترونيات فى إسرائيل ؟!

٢ - وبعد انتشار ثقافة الصورة بين الشباب من الظواهر المعاصرة للعولمة . فنظرا للأهمية التى تتبوأها ثقافة الصورة والبث التلفزيونى الذى أضعف العمل بنظام المخاطبة الثقافية التقليدية عبر الكتب والصحف والمجلات وصولا إلى المدارس والجامعات ، فإن المشروع الثقافى الغربى فى عصر العولمة قد أصبح فى عهدة الإمبراطوريات السمعية البصرية بما تملكه من نفوذ وإمكانات وسلطة تمكنها من تقديم مادتها الإعلامية للمتلقى فى قالب مشوق ، يجذب الانتباه عبر « تكنولوجيا الإثارة والتشويق » ، ويقارب عتبة المتعة . ومعها يبلغ خطابه الأيديولوجى أهدافه الاستهلاكية، ويسهم فى أود حساسة النقد لدى المتلقى ، الذى يجد نفسه فى نهاية المطاف قابلا لتمرير وتقبل جميع القيم والمواقف السلوكية دون اعتراض عقلى أو ممانعة نفسية ، فى وضعية شديدة الشبه بوضع السم فى الدسم (٣١) .

فى هذا الإطار تصبح ثقافة الصورة هى المفتاح السحرى للنظام الثقافى الجديد ، الذى ينتج وعى الإنسان بالعالم ، وهى تلعب فى إطار العولمة الثقافية نفس الدور الذى لعبته الكلمة فى التواريخ الثقافية السالفة . الصورة بحد ذاتها أصبحت خطابا ناجزا مكتملا يمتلك سائر مقدمات

التأثير الفعال فى مستقبله . والصورة على عكس الكلمة باتت قادرة على تحطيم الحاجز اللغوى لكى تصل إلى أى إنسان فى عقر داره .

وتعد ثقافة الصورة برغم سرعة انتشارها أو قدرتها على الاختراق ثقافة هزيلة وفقيرة وسطحية . تعمل بواسطتها الشركات الإعلامية وتتنافس لتقديم سلعها إلى المستهلك . تثير فيه الغرائز وتهندس تكنولوجيتها صناعة الإغراء والجاذبية . وإذا أخذنا فى الحسبان أن هجوم ثقافة الصورة على الوعى يجرى على توازٍ مع امتداد التراجع لمعدلات القراءة فى العالم الثالث، فسوف تتضح لنا معالم النفق المظلم الذى سوف تدخل إليه الثقافات والوعى فى عصر الصورة والإعلام السمعى والبصرى . حيث الضمور المتزايد لجسم المعرفة ، والتفتيت الشديد لنظام القيم ، وتكريس منظومة جديدة من الثقافة التى تؤكد على القيم النفعية والفردية والأنانية والنزعة المادية الغريزية المجردة من أى محتوى إنسانى ، والتى سوف تغدق على الجسد ما سوف يفيض عن حاجته من الإشباع ، غير أنها ستقتل الروح وتذهب بالمحتوى الأخلاقى والإنسانى للبشر (٣٣) .

يساعد الإعلام والإعلان وتكنولوجيا المعلومات من خلال الصورة على تشكيل وعى الشباب بضرورة التكيف مع ما هو قائم دون محاولة الخروج عليه ، سواء استند هذا التكيف إلى الاستهلاك المادى للسلع أو اكتفى بالاستهلاك المعنوى للصور والمعانى ، وهو ما يعنى تأسيس نوع من الوعى الزائف الذى يقف فى مواجهة نمو الوعى الموضوعى الذى جفت مصادره وينابيعه (٣٣) .

٣ - وتعد ثقافة الاستهلاك هى الظاهرة الثقافية الثالثة فى محيط

الشباب. ويشير انتشار هذه الثقافة إلى خلل فى منظومة الثقافة فى المجتمع . حيث نلاحظ تأكيدا من الشباب على التوجه الاستهلاكى (٣٤) . وحيث يعدّ الإغراق فى ثقافة الاستهلاك محاولة لتبديد ما تملكه الذات فى الحاضر دون التطرق إلى المستقبل . إذ يؤدى افتقاد الأمل فى مستقبل مشرق إلى إفناء كل شيء فى الحاضر . ومثلما يغيب الشاب فى مواجهة حالة الأنومى والانهيار الثقافى فى عالم دينى يبحث عن النقاء والطهارة بعيدا عن هذا العالم ، أو مثلما يغيب عن واقعه فى عالم المخدرات والجنس المحرر من أية قيود قد تفرضها تعقيدات الواقع ، فإن الشباب يتجه إلى إفناء ذاته فى الاستهلاك . وإذا كان خلق الإنسان ذو البعد الواحد هو خلق الإنسان العاجز عن النقد ،فإن إبداع الإنسان المستهلك يعنى إنسانا يرضى أن يعيش يومه لإشباع حاجاته فى مستواها الحيوانى (٣٥) .

ويعد التحول الليبرالى الذى رفع شعار الانفتاح الاقتصادى هو المسئول عن فتح الباب على مصراعيه لشيوع ثقافة الاستهلاك فى المجتمع . ولقد شكل الحرمان وسياسات الأحزمة فى مرحلة التحول الاشتراكى الطاقة الدافعة للتحول الجديد . وبدأ رأس المال المحلى الذى لم يجد قنوات للاستثمار فى المرحلة السابقة يتجه بقوة إلى سوق الاستهلاك الذى شاركت فيه غالبية الشرائح الاجتماعية . حيث تحول المجتمع بكامله إلى سوق كبيرة للاستهلاك . وحيث تدعمت هذه السوق من ناحية بوساطة السلع التى تدفقت على المجتمع من كل مكان ، وهى السلع التى روج لها الوكلاء المحليون بوساطة الإعلان الذى أصبح مصدرا رئيسيا لميزانية جهاز الإعلام (٣٦) . الذى جد واجتهد – باعتباره صاحب مصلحة – فى نشر روح الاستهلاك وقيمه فى المجتمع .



● ومن الطبيعى أن تدفع هذه الظروف إلى شيوع قيم الثقافة الاستهلاكية

ولقد لعبت الهجرة إلى مجتمعات الخليج دورها فى دفع الشباب إلى المشاركة فى ثقافة الاستهلاك . حيث هاجر إلى مجتمعات الخليج أعدادا كبيرة من المصريين من كل الشرائح الاجتماعية . وإذا كان المهاجرون قد عاشوا بأسرهم فى مجتمعات الخليج ، فقد تولدت لديهم ثقافة وعادات الاستهلاك . فمدن الخليج ليست سوى أسواق كبيرة ، تأتيها السلع للاستهلاك من كل حدب وصوب . والدخول عالية كافية لإشباع حاجات الاستهلاك مهما كان ترفها ، أو مهما كانت كثافتها . وإذا هاجر الآباء للعمل فى الخليج مخلفين الأسر والأبناء وراءهم ، فإن إغداق المال عليهم اقتطاعا من الأجر المرتفع كفيل بأن يعالج الإحساس بالذنب والتوترات والقلق عند الآباء لهجرهم أسرهم وتركها وراءهم ، ثم هو كفيل فى الوقت ذاته بأن يجعل الأبناء أعضاء نشطين فى نادى الاستهلاك .

ومن الطبيعى أن تدفع هذه الظروف إلى شيوع قيم الثقافة الاستهلاكية، ومن ثم دفع البشر إلى تبنى سلوكيات مادية سلعية . فإذا لم تساعدهم دخولهم على تحقيق احتياجاتهم التى اتسعت بفضل المشاركة فى ثقافة الاستهلاك ، فإن أبواب الانحراف تصبح هى الأبواب التى تطرق من أجل الحصول على مزيد من الدخل الذى يغطى الحاجة إلى الاستهلاك(٣٧). وليس هناك استثناء لشباب طبقة على أخرى فى هذا الصدد ، فسلع الاستهلاك معروضة تفجر الأشواق ، والميل إلى المغامرة من طبيعة الشباب. لتكن المخاطرة ، فإذا نجحت ذقنا حلاوتها واستمتعنا بلذة الاستهلاك والمخاطرة ، وإذا لم تنجح فالآباء يشغلون مراكز كبيرة وحتما سوف يخفون لإنقاذ أبنائهم الأبرياء !!

ويترتب على ذلك أيضا مظاهر تشير إلى عدم الانتماء ، حيث نجد أن

الميل المتطرف إلى الاستهلاك مسئول عن تدهور القيمة الاجتماعية للعمل المنتج .. مسئول كذلك عن تفكك الأسرة الذى يؤدى سعى أعضاؤها المحموم من أجل الدخل الأكبر إلى مزيد من الانصراف عن الأسرة ، وتمزيق نسيجها .. مسئول أيضا عن تحول القرية من الإنتاج إلى الاستهلاك، وعن الانصراف عن القضايا القومية والانشغال بالكسب المادى [٣٨] . بالإضافة إلى ذلك يؤدى شيوع ثقافة الاستهلاك فى مجتمع يعيش ٤٠ ٪ من سكانه تحت خط الفقر إلى تعميق الشعور بالإحباط . فإذا اتسعت مساحة الإحباط فإنها سوف تكون مولدة للتوتر ، وإذا تراكم التوتر فله مخارج انحرافية عديدة . قد يكون المخرج من خلال البلطجة اعتداءً على الآخر الذى يمارس الاستهلاك . وقد يكون من خلال الاغتصاب لأن الإحباط تكثف حتى لم يعد سوى الغريزة الجنسية هى المخرج الملائم التى تتولى تصريفه ، أو قد ينسحب المحبطون داخل ذواتهم بعيدا عن العالم ، حيث عالم خيالى جديد تفتحه أبواب المخدرات .

يقود انتشار الثقافة الاستهلاكية كذلك إلى تمجيد ما هو أجنبى والسعى إلى استهلاكه - ماديا كان أو معنويا - باعتباره رمزا من رموز المكانة الاجتماعية [٣٩] . ونتيجة تلاشى المشاعر المرتبطة بالهوية القومية والوطنية ، يندفع البشر - رغما عنهم - نحو الارتباط بما هو أجنبى وخارجى على حساب ما هو محلى وقومى ، وإعلان أورجواى واتفاقيات الجات يتكفلان بفتح أسواق العالم أمام هذا النمط المادى والثقافى الجديد . وتتداخل جوانب مادية ومعنوية فى استهلاك السلع ، فالغذاء أفضل من خلال منتجات « كنتاكى » و « الهامبورجر » و « الفرايتشكن » وما يقدمه الإعلان من سلع الاستهلاك ، بخاصة إذا كانت أجنبية ، فلا شك أن

مذاقها موثوق به . الشباب هنا لا يهتم بمضمون الإعلان بقدر ما يهتم بشكل الإعلان الذى يقدم له سلع الاستهلاك والغذاء ، فحاجته إلى الاستهلاك أو إلى الطعام فى حالة من التشكل الدائم أو السيرورة المستمرة. تولد لديه استعداد للسعى الدائم وراء الجديد ، بغض النظر عن الذوق والمذاق والفاعلية ، أليس هذا طعام السادة ؟!!

٤ - وتعد ثقافة التكيف الفائض ظاهرة ثقافية شبابية يعيشها شباب مشارف الألفية الثالثة ، بديلا لثقافة النضال التى قادها الشباب فى الأربعينيات والخمسينيات سعيا وراء استقلال الوطن ، أو بديلا كذلك لثقافة التمرد فى الستينيات وأوائل السبعينيات مطالبة بالديمقراطية والتنمية الصحيحة والعدل الاجتماعى . وإذا كان الشعور بالحرمان مع توقع الإشباع هو الافتراض الكامن وراء التمرد أو الثورة ، فإننا نجد أن الشعور بالحرمان غير متحقق لأسباب عديدة . أولها أن استهلاك الصورة قد يكون بديلا لاستهلاك السلعة . واستهلاك الصورة - برغم طابعه المعنوى - يحقق نوعا من الإشباع على المستوى الغريزى . يضاف إلى ذلك طرح بعض السلع التى قد تلعب دورها فى تصريف التوتر الناتج عن الحرمان حتى لا يتحول إلى حالة من الإحباط . ويدخل فى هذا الإطار كل السلع ذات الصلة بالجنس والمخدرات ، إضافة إلى أن سوق العولمة يتيح كثيرا من الآليات التى تخفف الشعور بالحرمان ، كآلية تقسيط الثمن بعد الحصول على السلعة التى طرحت فى الأسواق وأصبحت متاحة ، الأمر الذى قد يحقق قدرا من الإشباع بحيث لا نواجه بحالة لا يتحقق فيها الإشباع بصورة مطلقة .

بالإضافة إلى ذلك تعمل بعض المضامين التى يقدمها الإعلام



● إنسان يهتم بالثقافة الشفاهية أو ثقافة الصورة ، وليست ثقافة الكلمة المقروءة أو المسموعة .. إنسان يشارك

والإعلان وتكنولوجيا المعلومات على توسيع مساحة الإشباع الغريزى من خلال الجنس مثلا . الذى يبث ويعلن عنه بأساليب عديدة ومتنوعة ، وهو الأمر الذى يساعد على توسيع نطاق القاعدة الغريزية للإنسان . والاهتمامات التى تتأسس مستندة إليها ، الأمر الذى يكون عادة على نقيض الإيمان بالمثل والمبادئ والوعى بها ، وهى التى تشكل الطاقة الدافعة للرفض والتمرد ، بالإضافة إلى ذلك فقد لا تساعد هذه الظروف على تشكيل الوعى بطبيعة الحرمان وجذوره ، وتساعد على عدم إدراك مدى تحقق الإشباع .

إلى جانب ذلك هناك استبدال لثقافة الكلمة بثقافة الصورة . الأولى تساعد على الخيال والتأمل وتعمل على تطوير الجوانب الروحية والمعنوية فى البشر وترتفع بهم إلى مستوى إنسانى رفيع ، والثانية تدعم توجهات الاستهلاك ، وتستفز الغرائز وتهبط بالإنسان إلى مستوى غريزى وحيوانى، تحجب عن الشباب القدرة على رؤية المعانى المثالية للرفض أو الثورة . هل يمكن أن نتوقع من شباب « الكتاكى » و « الفرايتشكن » أن يقوموا برفض أو ثورة ؟!!

لقد عملت الصورة من خلال الإعلان والإعلام على استنساخ إنسان لديه الطاقة غير المحدودة على التكيف ، إنسان يمتلك إمكانية هائلة للخضوع لعملية إعادة التشكيل ، حتى يصبح ملائما لكل حالة . ولصياغة هذا الإنسان لابد من تطوير بعض أبعاده الخاصة به . فهو إنسان تتسع مساحة الطاقة الغريزية لديه ، وهى الطاقة التى تحتاج إلى إشباع متوسع باستمرار ، ومتجدد على الدوام .. إنسان يهتم بالثقافة الشفاهية أو ثقافة الصورة ، وليست ثقافة الكلمة المقروءة أو المسموعة .. إنسان يشارك

بفاعليـة فى عملية الاستهلاك ، وإن لم يكـن فليشارك فى ثقافـة الاستهلاك وقيمه .. إنســان يتابع الإعلان فى شكله ومـرتآه أكثر من متابعتـه لمضمون الإعـلان .. إنســان سقطت عنه مفــاهيم المواطنه والوطنيــة واستبـدلها بمفاهيم الســوق والتسوق . لم يعد لهذا الإنســان روابطه التى تربطه بماض أو تراث ، ولكنه إنسان يبحث عن الكامن والجديـد كأنما هو قاطرة تندفع من المحلية إلى العالمية ، ومن الماضى والآن إلى المستقبل .. إنسان لا ملامح ثابتـة له . مـلامحه فى حالـة دائمة من التشكل والسيرورة ، تتجـدد مـلامحه بنفس سرعة تجدد السلع واتساع نطاق الأسواق (٤٠) .

٥ ـ ولقد أصبحت ثقافة الجنس والمخدرات لها سطوتها فى عالم الشباب من كل الطبقات . أبناء الأغنيـاء أو حسبما يسمونهم اصطلاحيـا « حديثى النعمـة » ، يقودون سيـاراتهم السريعة فى شـوارع المدن الضيقة - متخمـة بالجنس والمخـدرات - أحيـانـا وهم مخمـورون أو فى أوضــاع الجنس والعربدة. إعـلان عن ثراء مفاجـئ بلا عراقة . وتقـع الحوادث وقد يسقط القتلى ، لا بأس !! فـالآباء الأغنيـاء قـادرون على دفع الديات . نهارهم فى مطاعم الهامبورجر ويشهد ليلهم سيـاراتهم المسرعة ، ولا مانع من قدر من المخدرات ، فالمخدرات والسرعة تثير الخيال وتطلق عقال الأحلام .

إلى جـانب ذلـك الشبـاب أبناء الطبقـة المتــوسطة على عكس الشريحة الأولى نجـدهم يعيشـون فى سيـاق مشكل . لا عمل ولا دخل ولا زواج . الحيـاة متـوقفـة بهم ، وأحلى سنوات العمـــر تضيع من بين الأصـابع . إذا حاولوا الاستعانة بأسرهم - أسر الطبقة المتوسطة ـ فأسرهم تعانى كذلك، تعانى من ارتفاع تكاليف المعيشـة ونفقات الدروس الخصوصية . فأسرهم

عـاجـزة عن إشبـاع كل حـاجـاتهم . وتطرح حلول تلقـائيـة لهذا الموقف المشكل . فمسكن الأسرة ينبغـى أن يأويه إذا تزوج ، حتـى ولو كـان غير متسع لذلك . وأحيـانا تتحمل الأسرة بعض نفقـاته حتى ولو كان دخلهـا محدودا . وإذا استحال الزواج ، فالزواج العـرفى متاح حيث ممارسة الجنس تحت غطاء من الشرعيـة ، وفى الوقت ذاته فهـو جنس بلا تكلفـة . وقـد يهرب الشباب من هذا الموقف الصعب إلى عـالم المخدرات ، حيث لحظات من السعادة يحققها « البانجو » رخيص الثمن ، أو يذهب إلى المسجد طالبا مبـاركة العناية الإلهيـة لحياته ، ويعـرض نفسه لأن تتلقفـه جماعات التيـار الإسلامى ، قد تغـريه بإشباع بعض حاجاته غير أنها تـدفعه فى النهاية على طريق العنـف والرفض ، فإذا كـان جهـاز الـدولة عـاتيـا فلتكن التقيـة والانسحاب .

يضاف إلى ذلك شباب الشرائح الطبقية الدنيـا القانعين بقدرهم فى قاع الحياة تحت خط الفقر . يدركون أن إشباع الحاجات غير ممكن وغير محتمل كذلك . إذن فلنشبع حـاجاتنا بما هو متـاح . يبدعون مـا يخدرهم كذلك ، يشمـون عادم السيـارات والبنزين ورمـاد احتراق النمل والصراصير ، أو حتى « كُلة » لصق الأحـذية . فكائنـات القـاع تهرب من واقعهـا المتأزم بآليات القـاع كذلك . وإذا كـان المجتمع قد اعتـدى عليهم وفرض عليهم مكانتهم ، فلنقـابل اعتـداء باعتـداء ، ولو مـن خـلال الانحـراف ، كالاغتصـاب حيث إشبـاع الغريـزة تحـت وطـأة المخدر ولـو بالعنف . وقـد يسلـم ذلك إلى جرائـم أخـرى كالقتل مثـلا ، إخفاء لجريمـة أكبر ، أو التعامل الجنسى مع الصغـار غير آبهـين بقدسية الـبراءة والطهارة . وإذا تعـذرت الأبواب وسدت فالغريزة والمخدرات ضاغطة حتى اختراق درع

غشيان المحارم وتمزيق الأقداس ، ونشر الحرام فى فضاء المجتمع .

والمخدرات ترافق الجنس وتشعل جذوته . فالحاجة إلى الجنس أصبحت كذلك عنصرا فى ثقافة الشباب ، ليس الجنس الطبيعى ، حيث يتحقق الإشباع من المعاشرة ، ولكنه جنس التكنولوجيا الحديثة ، حيث الجنس المقدم على أطباق الفضائيات الشهية أو حتى ممغنطا على أشرطة الفيديو ، أو الجنس الذى تقدمه شبكات الإنترنت بكل تنوعاته على خريطة العالم ، نوع من التجديد يقدم الغريزة بإخلاص وربما بحماس أعلى، ولا مانع من جنس اللغة من خلال « بغى » التليفون ، والمحمول أكثر نجاحا فى ذلك على ما يذهب الإعلان . ولا مانع من قدر من أقراص الفياجرا ، التى ضاعفت مساحة المشاركة فى سوق الجنس ، وجعلته اصطناعيا أو تكنولوجيا بدرجة أكثر ، ولا شك أن هناك أرباحا تتخم الجيوب ، وتشكل طاقة دافعة لاتساع السوق واتساع مساحة الإشباع .

نضالات الشباب أصبحت متلائمة وهذه الأحوال كذلك . وإذا كان شباب الخمسينيات والستينيات قد ناضلوا من أجل مثل رفيعة وطاهرة كالمطالبة بالاستقلال أو الوقوف مع الفيتنام فى حرب الاستقلال والتحرير، كانت قدوتهم ومثلهم إنسانية ورائعة « هو شى منه » و«ناصر» و « تشى جيفارا » و « جياب » و « كاسترو » و«جميلة بوحريد » . والآن فقد أسدل المجتمع التكنولوجى وعولمة الاستهلاك الستار على مرحلة من الطهارة والنضال ، وبدأت مرحلة جديدة ونضال جديد مختلف من حيث النوع ، حيث النضال والتظاهر تارة لقضايا تتصل بالغريزة كتظاهرات شباب الجنس الثالث ، أو نضالات بعض فئات المرأة من أجل إعلان

عالمى يؤكـد حقها فى التصرف بجسدها دون تـدخل أو قيود من المجتمع ، ولتسقط الأديان والمثل ، ولنضع بديلا مثـلا جـديدة . أو نضالات لتبـادل الشباب من الإناث والـذكور المواقع ، وفوضى الهرمـونات كفيلة بتحقيق ذلك . أو نضـالات من أجل ديانات جـديدة يمارسهـا « عبـدة الشيطـن » ينتظرون فى عتبـات المخدرات ، يحسبـون الزمن لمجىء « المسيح المنتظر » . أو الذين يستغرقـون فى الجنس ، ويطلون من خلال نوافـذه على كل جديد يستمتع فيه الجسـد بعد عالم مـات ، كانت المتعة فيـه للروح والمبادئ . وإذا كـان نيتشه قـد أعلن عن زيف بأن « الله قـد مات » ، فإننا نؤكـد بحق بأن موت الإنسان قد تحقق .

٦ – جماعة أخرى من الشباب تختار الثقـافة الدينية قيما توجه سلوكياتها فى قـالب عالم مشبع بحـالة الأنومى . ويرتبط الشبـاب بالدين لاعتبـارات عـديدة منها أن الشبـاب هم الشريحة العمـرية التى تميل عادة إلى التجـديد حتى ولو كـان ذلك اقتحاما للمجهـول ، لأن روابطها بالواقـع واهية على عكس الكبار ، ولأن الشباب هم الأكثر خصومة مع الواقع لكونهم الأكثر معاناة من عدم إشباع حاجاتهم فى إطاره . وإذا كان الهروب من هذا الواقع ضروريا فليكن إلى الدين . الشباب يخضعون كذلك لعملية تشكل الهوية ، وإذا كانت العـولمة تكتسح الهويات الثقافية الأخـرى فلنحتمى بالدين فهو الهوية والدرع القوى . وإذا كـانت نماذج التنمية العربية قـد فرضت عليهم الحرمـان من إشبـاع حـاجـاتهم ، فـإن الحل يكمن فى رفض هذه النماذج والاستعـانة بالتراث (٤١) . كإطار يمكن أن يقـود التنميـة التى تيسر هذا الإشباع . وإذا كانت قيم الدين تبدو نقيـة وطاهرة فإنها تكون ذات جاذبية خاصة للشباب ، فأنفسهم مرآة لها لكونهم أنقياء وأطهارا كذلك .

وإذا كـانت المجتمعات الناميـة تشكل مجتمعات انتقـالية ، وإذا كـانت الشخصية الشـابة انتقاليـة بطبيعتها ، فإن عدم الاستقـرار يبدو مضـاعفا ، ومن ثم يترسخ لدى هذه الشريحة شوق دائم من أجل الاستقرار والثبات، وهي حـالة تتحقق إذا استندت إلى يقين ثـابت بإيمان أو معتقـد . ويتأمل الشباب متسائلين إذا كـانت معتقدات الدين قد لعبت دورها في الماضي في تأكيد مجد المجتمع وقوته ، فماذا حدث في أمـر بعض الشباب الذين هجروا هذه القيم وتلك المعتقدات ؟

يقود هـذه الدعوة شباب السيـاقات الحضرية بـالأساس ، لأنهم الأول الذين يعـانون من مشاعـر الحرمان في قلب أطر اجتماعيـة تبشر باستهلاك السلع صباح مساء . ثم هم أيضا أبناء الطبقـة المتوسطة التي تكالبت عليها المصـائب كما تتكالب الأكلة إلى قصعتهـا . النظام السيـاسي يسحب الامتيازات من تحت أقـدامها ، امتيازًا تلو الآخر . والدروس الخصـوصية والسعي لنوعيـة حيـاة مـلائمـة تعصرها بين سندان ظروفهـا الاقتصـادية المنهكة ومطرقـة الطموحـات التي فجرتها المرحلة الاشتراكيـة . وفي قلب هذه الأوضاع المؤلمة يبحث فصيل من الشباب عن يقين في قلب عالم يملؤه الكذب والفسـاد عن ثقافة تبرر التقشـف وإشباع الحاجات في مستـوياتها الدنيا ، في مواجهة استشراء الاستهلاك حتى التخمة ثقافة وسلعا وصورا. يحتمي بعفة الديـن من عالم أصبح الدنس فيه وحـلا تغوص فيـه الأقدام . وتصبح كبرياء الدين والتدين قيمة تجعلنا أقوياء في مـواجهة قوى العولمة ، وأجهزة القمع العاتيـة ولا خوف . وبساطة الدين لها جاذبيتهـا في مواجهة تعقيد الحضارة وعبثيتها . ألم تشيد هذه القيم خلافات ودول وممالك دانت الدنيا ؟ فلماذا لا نجرب ؟ وإذا كان البعض يرفض فلأنهم كبارا تكيفوا مع



● ويتـولـد العنف والتطرف ليس فى الأفكـار والقيم فقط ، ولكن فى المظهـر الخارجى كذلك.

الحاضر ، ولأنهم أصحاب مصلحة فيه . ولأن الدين دين الله ، وهو الذى أمرنا بذلك فلندعو إلى سبيل ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإن لم نجد استجابة ففى طلقات الرصاص ملجأ أخير .

ويختلط الغياب فى الدين بمشاعر العداء نحو المجتمع ، ويتولد العنف والتطرف ليس فى الأفكار والقيم فقط ، ولكن فى المظهر الخارجى كذلك . فالثوب لابد أن يكون قصيرا ، ولا ينبغى أن تكون رأس الرجل عارية ، كما أن الذقن لابد أن تترك طويلة على سجيتها ، على الرغم من أنف أبى الطيب المتنبى الذى قال شعرا : « يا أمة ضحكت من جهلها الأمم » !!

٧ - وإذا كان الهروب إلى الدين واستلهام قيمه لتشكل ثقافة توجه سلوكيات شريحة من الشباب ، قد تطرف ليصبح الدين لديها نظاما يفرض بالعنف وطلقات الرصاص ، فإن هناك فئة من الشباب استدعت انعكاس حالة الأنومى على لاوعيها الفردى ، واغترفت من اللاوعى وعيا يصنع ثقافتها . أدركت هذه الفئة بلاوعيها ألا فائدة . فقوى العولمة عاتية وآلياتها نافذة ، وجهاز الدولة الرادع والمحيط مؤيد بها ، وحاجاتنا تشبع الآن من خلال سعى الآباء فى نطاق الأسر ، والمستقبل مخيف لكنه قاتم وقادم . البطالة ضاربة حولنا ، والحصول على مسكن مستقل لشاب أصبح حلما ، والزواج أصبح من الوقائع النادرة فى المدينة ، والدخول أصبحت ضعيفة ومرهقة لا تستطيع مواجهة الأسعار المتصاعدة ، تؤمن بالكاد احتياجات الأسر ، وإذا كان البعض من حولنا قد امتلك إمكانية الاستهلاك فانصرف إليها ، فإن البعض الآخر استغرق فى الجنس والمخدرات ، وكذلك ذهب البعض الثالث إلى الدين بحثا عن النقاء والطهارة . فلنبق نحن هنا ، ولن نهرب ولنمارس الاستمتاع بالحاضر ، على الرغم من خصومتنا معه ،

لنشكل مجتمعا منفصلا عن المجتمع الأم ، وثقافة منفصلة عن الثقافة ، ولغة ليس فيها من العربية سوى أبجديتها . لغة لها شفرات لا يدرك الكبار رموزها .

ونجد عند بعض الشباب مفردات عديدة وغريبة منها : « نفض له = اتركه » ، «خنيق = ثقيل الظل » ، « بيئة = طبقة عالية » ، « بيئة طحن = طبقة دنيا» ، « احلق له = ابعده » ، «روش = معتدل المزاج » ، « سيس = شخصية واطية » ، « طحن جدا = سيئ جدا » ، «أشفور = فقير ليس معه مال » ، « دوس = لا تتوقف » ، « طنشنى = لم يهتم بى » ، « كبر الجمجمة = لتكن عاقلا معتدل المزاج » ، « بخ = مستريح أو مسترخى أو نائم » ، «حلو موت = رائع جدا » .

وإذا كانت العولمة تهاجم الثقافة واللغة على مشهد من الكبار الذين أهملوا النضال من خلال المؤسسات التعليمية والثقافية حفاظا على الثقافة واللغة ، فلنشارك فى غرق السفينة ، ولنؤسس لغة جديدة نتحدث بها همسا دون أن يدرك الكبار أى مضامين لها ، حتى ولو كانت لغة عبثية تغذيها أغنيات مطرب شعبى يسهم بدوره فى القتل العبثى للحس الثقافى ، دون أن يستيقظ حراس الثقافة ، حينما تنطلق أشرطة الكاسيت معلنة فى بعض الأغانى عن ألفاظ غير مواتية ، تلك التى تجرح الحس الراقى وتضغط على مشاعر كل من يحب وطنه ولغته الأم .

■■■

# المصادر

1 - Nilson F., Youth in Changing Society, Routledge and Kegan Paul, London, 1978 . p . 12 .

2 - Flaks, R., Youth and Social Change, Markhaw Publishing Company, Chicago, 1971, p. 37 .

3 - Ibid. p. 32.

٤ ـ على ليلة : الشباب فى مجتمع متغير ، تأملات فى ظواهر الأحياء والعنف، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٢ ، ص٣٦ .

٥ ـ على ليلة وآخرون : قضايا ومشكلات التخلف فى العالم العربى ، دار الحريرى للطباعة ، ٢٠٠٠ ، ص٢٩٨ .

٦ ـ على ليلة ، الشباب فى مجتمع متغير ، تأملات فى ظواهر الأحياء والعنف، مرجع سابق ، ص٧٠ .

٧ ـ نفس المرجع ، ص٧٢ .

٨ ـ نفس المرجع ، ص٧٥ .

٩ ـ على ليلة : تأثير التحولات الاجتماعية الاقتصادية على الأمن القومى المصرى ، ندوة « التحولات الاجتماعية والأمن القومى » ، إبريل ٢٠٠٠ ، ص٧١ .

١٠ ـ جـلال أمين ، مـاذا حـدث للمصريين ؟ تطور المجتمع المصرى فى نصف قـرن ١٩٤٥ - ١٩٩٥ ، دار الهلال ، القـاهرة ، ١٩٩٧ ، ص٢١ .

11 - Erikson E. Identity and the Life Cycle, New York International University Press, 1959, p. 32.

١٢ ـ على ليلة ، الشباب المصرى وقضاياه من وجهة نظر المثقفين المصريين، منشورات المركـز القومى للبحوث الاجتماعيـة والجنائية ، ١٩٨٠ ، ص٧٦.

١٣ ـ محمـد حسنين هيكل ، خـريـف الغضب ، قصـة بـداية ونهاية عصر السادات ، ص١٩ .

١٤ ـ توفيق شومـان ، الإعلام العـربى وتحديات العولمة ، الشـاهد ، العدد ١٥٨ ، تشرين أول ، ١٩٩٨ ، ص٧٥ .

١٥ ـ كـريم أبو حلاوة ، الآثـار الثقافيـة للعـولمة ، خطوط الخصوصيـات الثقـافيـة فى بناء عـولمة بديلة ، ص ص١٧١ ـ ٢٠٢ فى عـالم الفكر المجلد ٢٩، العدد ٣ يناير ـ مارس ، ص١٨٤ .

١٦ ـ المرجع السابق ، ص١٨٤ .

١٧ ـ نفس المرجع ، ص١٨٦ .

١٨ ـ على ليلة وآخـرون ، قضـايا ومشكلات التخلف فى العـالم العـربى ، مرجع سابق ، ص٢٩٨ .

١٩ ـ نفس المرجع ، ص٢٩٩ .

٢٠ ـ محمـد إبراهيـم منصـور « تعقيب » ، ص ص٣٥٤ ـ ٣٥٥ ، ( فى ) العـرب والعولمة ، مـركز دراسـات الوحـدة العربيـة ، تحرير أسامـة الخولى ، بيروت ، يونيو ، ١٩٩٨ .

٢١ ـ ليلى شرف ، تعقيب ، ص ص٣٥٧ ـ ٣٥٨ ( فى ) العـرب والعـولمة ، مرجع سابق ، ص٣٥٧ .

٢٢ ـ كريم أبو حلاوة ، مرجع سابق ن ص١٨٧ .

٢٣ ـ سهير لطفى وآخـرون ، الأسرة المعيشيـة والإنفـاق الاجتماعى .. الواقع والتطلعات ، دراسة مسحية بالعينة ، منشورات المركز القومى للبحـوث الاجتماعية والجنائيـة بالاشتراك مع برنامج الأمم المتحـدة الإنمائى، القاهرة، ٢٠٠٠ ، ص٣٥ .

٢٤ ـ نفس المرجع ، ص٣٣ .

25 - Durkheim, E. The Division of Labor in Society The Free Press of Glencoe, London, 1964, p. 112.

٢٦ ـ على ليلة ، الشباب فى مجتمع متغير ، مرجع سابق ، ص٨٦ .

٢٧ ـ الهيئة العـامـة للاستعـلامـات ، وزارة الإعـلام ، سلسلة دراسـات متخصصة (٣) مقدم ظاهرة العـولمة فى العالم المعاصر ، بدون تاريخ ، القاهرة ، ص٨١ .

٢٨ - على ليلة ، تآكل الرفض الشبابى ، تأمـلات مـع بداية الألفية الثالثة ، الندوة السنوية السـابقـة ، كليـة الآداب جـامعـة القـاهرة ، قسم الاجتماع ، ٢٩ - ٣٠ إبريل ٢٠٠٠ ، ص ١٦.

٢٩ ـ كريم أبو حلاوة ، مرجع سابق ، ص١٨٨ .

٣٠ ـ نفس المرجع ، ص١٧٧ .

٣١ - عبد الإلـه بلقزيز ، فى البدء كانت الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٩٩٨ ، ص١٢١ .

٣٢ ـ على ليلة ، تآكل الرفض الشبابى ، مرجع سابق ص١٦ .

٣٣ ـ نفس المرجع ، ص٢١ .

34 - Eisenstadt, S. N., From Generation to Generation, Age Groups and Social Structure, The Free Press, New York, 1956, p. xxiv.

٣٥ - على ليلة ، الشباب فى مجتمع متغير ، مرجع سابق ، ص٨٦ .

٣٦ - على ليلة ، تأثير التحولات الاجتماعية الاقتصادية على الأمن القومى المصرى ، مرجع سابق ، ص٨ .

٣٧ ـ نفس المرجع ، ص١٩ .

٣٨ ـ نفس المرجع ، ص١٧ .

٣٩ - محمد محمـود الإمام ، الظاهرة الاستعمارية الجديدة ومغـزاها بالنسبة للوطن العـربى ( فى ) العـولمة والتحـولات المجتمعيـة فى الوطن العربى ، مركز البحوث العـربية بالاشتراك مع الجمعية العربية لعلم الاجتماع . (تحرير ) عبـد البـاسط عبـد المعطى ، مكتبـة مـدبولى ، ١٩٩٩ ، ص ص٧٣ - ١٠٩ ، بخاصة ص١٠٧ .

٤٠ ـ على ليلة ، تآكل الرفض الشبابى ، مرجع سابق ، ص٧ .

٤١ ـ على ليلة ، الشباب فى مجتمع متغير ، مرجع سابق ، ص٣٧٠ .

٤٢ ـ نفس المرجع ، ص٣٧٦ .

■■■

## الفهرس